القدس الشريف
في تاريخ العرب والإسلام ★

الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي

— ١ —

تقع مدينة القدس الشريف على هضبة حصينة محاطة بوديان ، وعلى هذه الهضبة أقامت منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد قبائل ساميّة من أشهرها الآموريون . وجاء في نصوص هيروغليفيّة وُجدت في مصر العليا أن « يُرُوشالم » كانت خاضعة للفراعنة في القرن التاسع عشر قبل الميلاد . وهذا الاسم ساميّ معناه « مدينة السلام » أو مدينة شالم (وشالم هو اسم إله السلام عند الكنعانيين) . ووُجد هذا الاسم أيضاً في نقوش مصرية يَتَبَيَّنُ منها أن أحد حُكّام المدينة كان يعبد أحد آلهة الحِثّيين . وعلاقة المدينة بالآموريين والكنعانيين والحثيين في هذه الشواهد لها هذا الصدى في التوراة : « هكذا قال السيد الرب لأورشليم : مَخْرجكِ ومولدك من أرض كنعان . أبوك أموري وأمك حثّيّة . »[1]

وفي أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد تَرَاخَى حكم الفراعنة على أرض كنعان ، فدخلت بعضَ أجزائها من الشرق قبائلُ من العبرانيين جاءت من الصحراء ، ونزلت من البحر في سواحلها الجنوبية أفواجٌ من الفلسطينيين عُرفت أرض كنعان فيما بعد باسمهم .

(★) كنا نتمنى أن ننشر هذا المقال في عدد واحد لولا أن طوله حال دون ذلك فجعلناه في عددين هذا العدد والعدد الذي يليه ان شاء الله .

(١) حزقيال : الاصحاح ١٦ ، العدد ٢ — ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن مدينة أورشليم ظلّت بأيدي اليبوسيين حتى أخذها داود حوالي سنة ١٠١٠ قبل الميلاد ، وأسس فيها مملكة وراثية ، وفيها بنى ابنه سليمان الهيكل . لكن المملكة انقسمت بعده إلى مملكتين متحاربتين ، تعرّضتا لغزو البابليين والفلسطينيين والمصريين . وفي سنة ٥٨٦ قبل الميلاد خرّب نبوخذنصّر ملك بابل المدينة والهيكل وسبى خيرة السكان ، وبعد تغلّب الفرس على البابليين سُمح لليهود بالعودة وبناء الهيكل في ظل حكم فارسيّ دام حتى أزاله الاسكندر المقدوني .

وتعاقب خلفاء الاسكندر : البطالسة في مصر والسلوقيون في سورية ، على حكم اليهود ، وحاول السلوقيون فرْضَ المدنية اليونانية عليهم فثاروا وخلعوا النير اليوناني عن أعناقهم ، ولكن سرعان ما وقعوا تحت النير الروماني . وعيّن هيرودتس ملكاً على اليهود تحت الحكم الروماني . وكان أدُومياً (نصف عربي) لم يقبله كل اليهود ، لكنه أعاد بناء الهيكل لهم على طراز فخم ، وبعد موته أعاد الرومان الحكم المباشر ، وكان بِنْطُسْ بِلاَطُسْ حاكمَهم عندما ولد السيد المسيح ، وأهم حوادث القرن الأول بعد ميلاده : هَدْمُ مدينة أورشليم وحرق الهيكل في سنة ٧٠ على يد طِيطُسْ ، وسحق ثورة يهودية ، وحرث مكان المدينة وإقامة مستعمرة رومانية باسم إيلْيَاء على أنقاضها ، وبناء معبد لِجُوبِتِر على أنقاض الهيكل ، في سنة ١٣٤ على يد هَدْرِيان . وهو الذي حرّم دخول المدينة على اليهود ، فانسحبت بقاياهم للإقامة في منطقة الجليل ، وغلب اسم « فلسطين » على البلاد في العهد الروماني ، وعُرفت أورشليم بإيلياء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ورأى الحواريّون في تلك الحوادث مصداقاً لنبوة السيد المسيح عن الهيكل والمدينة : « الحق أقول لكم إنه لا يُترك فيها حجر على حجر لا يُنقض »[٢] . « وستأتي أيّام يحيط بك أعداؤك بمتراسة ، ويُحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك ونبيك فيك ولا يتركون فيك حجراً على حجر »[٣] . أما اليهود فلم يؤمنوا برسالة السيد المسيح ، واضطهدوا القليلين من بني جلدتهم الذين آمنوا به ، فصبر هؤلاء على الأذى ، وظلوا بعد سيّدهم يُحيُون ذكراه في معالم المدينة ، وعملوا بما أمرهم من التبشير باسمه « لجميع الأمم مبتدأ من أورشليم »[٤] . فتفرقوا في أقطار الامبراطورية الرومانية ، وتحملوا الاضطهاد إلى أن اعترفت الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) بالنصرانية في سنة ٣١٣ ، وجاء الفرج عندما اعتنقها الامبراطور قسطنطين وجعلها الدين الرسمي .

وكان لهذا الانقلاب أثر عظيم في مدينة إيلياء ، إذ تحولت بسرعة من مدينة وثنية إلى مدينة نصرانية ، وسهّل ذلك زوال آثار اليهودية منها قبل مئتي سنة ، فقامت فيها وفي بيت لحم الكنائس العظيمة ، مثل كنيسة القيامة وكنيسة المهد ، بأمر قسطنطين وأمه هيلانة . وبأمرها أُزيلت جميع المعابد الوثنية التي أقيمت بعد خراب الهيكل ، واستمر هذا التحول إلى أن قرّر مؤتمر إفسُس الكنسي في سنة ٤٣١ إقامة بطريرك للكنيسة الارثوذكسية في المدينة .

---

(٢) انجيل لوقا : الاصحاح ١٩ ، العدد ٤٣ ـ ٤٤
(٣) انجيل متّى : الاصحاح ٢٤ ، العدد ٣
(٤) إنجيل لوقا : الاصحاح ٢٤ ، العدد ٤٧

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولكن هذا الكيان النصراني قد تزعزع في أوائل القرن السابع عندما غلب الفرسُ الرومَ البزنطيين ، واجتاحوا سورية وفلسطين ودخلوا إيلياء في سنة ٦١٤ . فرأى اليهود في منطقة الجليل بارقة أمل في استعادة ما فقدوا ، فتطوعوا لمساعدة الفرس ، واشتركوا معهم في ذبح النصارى وهدم الكنائس . ولما دارت الدائرة على الفرس بعد خمس عشرة سنة بانتصار هيراقليوس عليهم واستعادة إيلياء ، انتقم من اليهود انتقاماً قاسياً ، وجدّد ما فرضه هادريان من تحريم دخول المدينة عليهم ، وهذه الحرب بين الفرس والبزنطيين لها ذكر في القرآن الكريم :

« الم . غُلبت الرومُ في أدْنى الأرض وهم مِنْ بعد غَلَبهم سيَغْلبون في بضع سنين » (٥)

- ٢ -

عرف العرب قبل الاسلام أدْنى الأرض « أي أقربها إلى الحجاز ، وهي جنوب سورية (فلسطين) ، فقد جاء أن بعض القبائل العربية حاربت مع « الفلسطينيين » الذين هاجموا أورشليم في سنة ٨٥٠ قبل الميلاد ، وجاء أن بعض العرب اشتركوا في الدفاع عن غزة أمام اسكندر المقدوني . وأهم ما في ذلك أن قبيلة عربية أقامت بقرب إيلياء بعد أن أصبحت مقر بطريرك ، واعتنقت النصرانية وعلا شأنها حتى أصبح شيخها مطراناً .

وصلة عرب الحجاز التجارية مع اليمن جنوباً والشام شمالاً وُصِفت

(٥) سورة الروم : الآيات ١ - ٣

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في القرآن الكريم بـ« رحلة الشتاء والصيف »[٦] . فرحلة الصيف كانت محطتها الكبرى في البطراء عاصمة الأنباط ، فمنهـــا كانت القوافل التجارية تتجه إما إلى غزة أو إلى دمشق . والمشهور أن هاشماً من أجداد رسول الله ﷺ كان في قافـــلة تجارية عندما تُوفي في غزة فعرفت باسمه « غزة هاشم » . ورسول الله ﷺ نفسه رافق وهو صبي عمّه أبا طالب في رحلة تجارية إلى دمشق[٧] . وعمرو بن العاص ، أحد تجار مكة ، عرف جنوب فلسطين حتى بيت المقدس قبل أن يعرفها قائداً للجيش الإسلامي الذي حاصر تلك المدينة . بناءً على هذا كله يستنتج أن الفتح الاسلامي لم يكن بدءاً للوجود العربي في فلسطين بل تأكيداً له . وقبيل الفتح رفع الله شأن بيت المقدس بإسراء رسول الله ﷺ اليها ، كما جاء في الآية الاولى من سورة الاسراء :

« سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لِنُرِيَهُ مِنْ آياتنا ... »

وبجمل قصة الإسراء ، قبل أن يُفصلّها العلماء تفصيلاً في غاية الجمال والروعة ، ان جبريل حمل رسول الله على دابّة تسمى « البراق » ليلاً من مكة الى بيت المقدس ، فوجد هناك ابراهيم وموسى وعيسى في نفر من الأنبياء ، فصلّى بهم رسول الله ﷺ إماماً بقرب الصخرة المشرفة ، ثم عَرَج مع جبريل من فوقها الى السماء الدنيا فالثانية إلى أن وصل الى السماءالسابعة « وانتهى به (جبريل) الى مخاطبة ربه » .

---

(٦) سورة قريش : الآية الثانية .

(٧) السيرة النبوية لابن هشام (تحقيق مصطفى السقا وزميليه، القاهرة ١٣٧٥/١٩٥٥) ج ١ ص ١٨٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأخيراً نزل الى الأرض وعادالى مكة قبل آخر الليل على ظهر البراق [٨] .

وقد زاد الله تعالى بيت المقدس شرفاً بأن أنزل على رسوله وهو فيها ليلة الاسراء ، وقبلها صلى إماماً بمن سبقه من الانبياء ، آيةً من سورة الزخرف وهي «واسْأَلْ مَنْ أرسلنا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنا: أجعلنا من دون الرحمن آلهة يُعْبدون »[٩] وهي الآية الوحيدة التي لم تنزل في مكة أو المدينة ، ونزولها في بيت المقدس زاد قصة الإسراء والمعراج جلالاً ، فسواء كان ذلك بجسده (ﷺ) أم بروحه ، فرموزه عظيمة الاثر في تاريخ الاسلام والعرب ، جعلت من بيت المقدس المدينة الثالثة بعد مكة والمدينة في القداسة .

وبعد ذلك ساوى رسول الله ﷺ المسجد الاقصى بمسجدي مكة والمدينة ، فقد قال في حديث شريف رواه أبو هريرة بسند صحيح : « لا تُشَدُّ الرِّحال إلا الى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الاقصى » . وورد هذا الحديث الشريف بنصٍّ آخر جاء فيه ترتيب المساجد هكذا : المسجد الحرام في مكة ، فالمسجد الأقصى في بيت المقدس فمسجد الرسول ﷺ في المدينة [١٠] . ومعنى

---

(٨) السيرة النبوية لابن هشام ، ج ١ ص ٣٩٦ وما يليها . في اوائل هذا القرن اثبت استاذ اللغة العربية في جامعة مدريد ، وكان راهبا كاثوليكيا ، ان دانتي استمد كثيرا من الصور والافكار من قصة الاسراء والمعراج وغيرها من الاصول الاسلامية .

(٩) تفسير الطبري (المطبعة الاميرية ببولاق ، ١٣٢٩) ج ٢٥ ص ٤٦ — ٤٧ .

(١٠) صحيح البخاري (بولاق ، ١٢٩٦) ج ٢ ص ٥٢ — ٥٣ . ورد هذا الحديث ايضا في الترمذي (القاهرة ١٢٩٢) ج ١ ص ٦٧ ، وفي ابي داود (القاهرة ١٢٨٠) ج١ ص ٢٠٢ . زعم بعضهم ان هذا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المسجد في اللغة مكان السجود ، ومعنى الاقصى الأبعد ، أي بالنسبة الى المسجد الحرام . فالمسجد الاقصى في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف هو مكان سجود رسول الله ﷺ بقرب الصخرة المشرفة في بيت المقدس عندما صلّى إماماً بمن سبقه من الانبياء ليلة الإسراء ، وهذا ، لا ما خرّص المستشرقون ، هو تفسير اتخاذ بيت المقدس القِبْلة الاولى في الصلاة إلى أن نزل الوحي بتحويلها الى مكة .

- ٣ -

فاذاً عرف العرب « فلسطين » و « بيت المقدس » و « المسجد الاقصى » قبل الفتح الاسلامي[1] ، وكتب تاريخهم التي تفصّل هذا الفتح تذكر فلسطين ، وهو الاسم الذي اتخذه الرومان للقسم الجنوبي من سورية . وتذكر إيلياء عند الكلام عن الروم ، او بيت المقدس عند الكلام عن المسلمين . ومنزلة بيت المقدس في نفوس المسلمين الفاتحين ، ومنزلة المسجد الاقصى في تلك المدينة ، تجلتا ، بعد الذي نزل من القرآن وما جاء في الحديث ، في تحيّتهم للمدينة ، عندما رأوها لأول مرة من مشارفها الجنوبية ، بالتهليل والتكبير ، وهذا هو أصل اسم « جبل المكبّر » .

ولما اشتد حصار المسلمين للمدينة ، ورغب البطريرك صفْرونيوس

---

[1] الحديث موضوع بحجة ان « المسجد الاقصى » لم يكن موجودا في عهد الرسول . وهذا إغراق في المغالطة والتجاهل ؛ فلا جدال ان المسجد الاقصى المعروف الآن بناه عبد الملك بن مروان بعد نحو ستين سنة من وفاة الرسول . ولكنه ليس المقصود ؛ لا في الآية الكريمة ولا في الحديث الشريف ، بل المقصود كما بيّنا هو مكان سجود رسول الله ليلة الاسراء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في التسليم ، اشترط ان يكون ذلك على يد الخليفة نفسه ، فقبل عمر ذلك ، بعد مشاورة الصحابة وامراء الجيوش ، وقد يبدو هذا الطلب غريباً ان لم يكن فريداً ، في تاريخ الحرب ، لكن قبوله يُعَدُّ برهاناً آخر على عُلوّ منزلة المدينة عند الخليفة وعند المسلمين . وعهده الذي أعطاه لاهلها مثال في التسامح واللين في عصر اشتهر بالتعصب والقسوة . وفي العهد شرطٌ خاصّ بمنع إقامة اليهود مع النصارى في المدينة . ولاشك ان هذا الشرط كان بناءً على طلب البطريرك ، بعد الذي لاقاه اتباعه أثناء الغزو الفارسي من شر اليهود . وهذا الشرط كان في الحقيقة تجديداً لما فرضه هادريان على اليهود ، وجدّد فرْضه هراقليوس قبل بضع سنين من الفتح الاسلامي . وهذا نص العهد :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان . أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ... أنه لاتُسْكن كنائسهم ولاتُهْدم ولايُنْتَقَص منها ... ولا من شيء من اموالهم . ولايُكْرَهون على دينهم ، ولايُضَارُّ أحدٌ منهم . ولايسكن بايلياء معهم أحد من اليهود .

« وعلى اهل ايلياء إعطاء الجزية كما يُعطي أهل المدائن . وعليهم ان يُخرجوا منها الروم واللصوص . فمَنْ خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم . ومَنْ اقام فهو آمن ، وعليه ما على اهل ايلياء من الجزية . ومن أحبّ من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ... فانهم آمنون على انفسهم ... حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان فيها من اهل الارض ، فمَنْ شاء منهم قعد ، وعليه ما على اهل ايلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الروم . ومَنْ رجع الى اهله ، فإنه لايؤخذ منهم شيء [من الجزية] حتى يحصدوا حصادهم ...[١١] » .

هذه الوثيقة واضحة الدلالة لا تحتاج الى تفسير إلا عبارة « أهل الأرض » فمعناها « الفلاحون » الذين التجأوا الى المدينة قبل حصارها فكان لهم ان يبقوا أو ان يخرجوا مع الروم ، فاذا خرجوا ثم أرادوا الرجوع الى أهلهم كان لهم ذلك ، والباقون والراجعون سواء في دفع الجزية ، لكن لا تُجْبَى من الفلاحين إلا بعد الحصاد . وواضح ان الوثيقة تفرّق بين طائفتين من الناس : الروم واهل البلاد . فالأولون حكام غرباء غلبوا على أمرهم فكان عليهم الخروج ، والآخرون ساميّون دانوا بالنصرانية ، وتكلموا في الغالب اللغة الآرامية ، فكان لهم البقاء مع ضمان الحرية الدينية وسلامة الارواح والاموال والكنائس . وأهمّ استنتاج من نص الوثيقة أن المدينة كانت خالية من اليهود . ومع ذلك اشترط عدم السماح لهم بسكناها مع النصاري . والمدقق في الوثيقة يرى نواة الاستقلال الطائفي الملّي الذي قُدّر له أن يكون أساس سياسة التسامح الاسلامي مع « أهل الكتاب » الذين صالحوا المسلمين على دفع الجزية .

وقد كتبت الوثيقة بخط معاوية بن ابي سفيان ، بحضور خالد ابن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص . وبعد إعطاء عهد الأمان هذا أخذ عمر ومَنْ معه يبحثون عن مكان سجود رسول الله ﷺ ، فلمّا وجدوه ، مكان الهيكل القديم الذي ازاله الرومان وعلى انقاض

---

(١١) تاريخ الطبري (مطبوعة دي غويه) ج ١ (القسم الخامس) ص ٢٤٠٥ ـ ٢٤٠٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

معبد جوبتر الذي ازاله النصاري ، نظّفوه والخليفة على رأسهم ، ثم أمر بلالاً ، مؤذن رسول الله ﷺ ، أن يؤذّن للصلاة ، فصلّى المؤمنون وراء أميرهم في ذلك المكان . وعندها أمر عمر أن يقام عليه مسجدٌ تخليداً لذكرى إسراء رسول الله ﷺ . وقد ظل هذا المسجد قائماً الى ان تَمَّ بناء قبة الصخرة سنة ٧٢ للهجرة وبناء المسجد الاقصى بعد ذلك بسنتين في خلافة عبد الملك بن مروان . (وهذا يبيّن غلط الاوربين في تسمية مسجد قبة الصخرة بجامع عمر) .

ومن الصحابة وامراء الجيوش وقراء القرآن ورواة الحديث الذين صلّوا وراء عمر في ذلك اليوم التاريخي ، بالاضافة الى هؤلاء الذين شهدوا إعطاء عهد الامان ، ابو عبيدة بن الجراح ، وعبادة بن الصامت ، وعبد الله بن عباس ، وشداد بن أوس ، وأبو ذرّ الغفاري ، وأبو هريرة ، ومن النساء جُهَيْنة أمّ الدَّرْداء (التي خطبها معاوية فرفضته وظلت تجالس العلماء وتواسي الفقراء نصف السنة في بيت المقدس ونصفها في دمشق) . وقد عين الخليفةُ أحد هؤلاء وهو عبادة بن الصامت « قاضياً ومعلماً » في المدينة ، أي حاكماً في الامور الدنيوية ومرشداً في الامور الدينية .

وهكذا تأكدت منزلة بيت المقدس في تاريخ الاسلام ، وزادها تأكيداً كثرة مَنْ أمّها حالاً بعد الفتح من قرّاء القرآن ورواة الحديث وأهل الزهد ، رغبة في الحج اليها او لإقامةٍ فيها . وأكّدها أيضاً معاوية بن أبي سفيان الذي آثر ان تُعلن خلافته فيها لا في عاصمته دمشق . لكن أهم ما أكّد تلك المنزلة هو مساواتها عملياً بمكة والمدينة عندما أقام عبد الملك بن مروان فيها قبة الصخرة والمسجد الأقصى على ساحة الحرم الشريف . وقد خمّن بعضهم ان اقامة المسجدين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان لسبب سياسي ، وهو صرف أهل الشام عن الحج الى مكة والاكتفاء بالحج الى بيت المقدس ، اثناء ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز على حكم بني أمية في دمشق الشام . قد يكون هذا سبباً ثانوياً ، اما السبب الأولي فدينيّ لا سياسيّ : فذكر المسجد الأقصى في القرآن الكريم والحديث الشريف ، وإسراء رسول الله ﷺ إليه ، وتأسيس خليفته أول مسجد على ساحته يوم فتح المدينة ، كل ذلك يؤكّدُ السبب الديني ويقلّل من شأن السبب السياسي .

وآية ذلك انه نشأت حالاً بعد الفتح الاسلامي حركة قرّاء القرآن ورواة الحديث من الحجاز الى البلاد المفتوحة لأجل لِقاء الثقات من الصحابة الذين خرجوا مع الجيوش ، كما نشأت حركة الحجاج من الاقطار المفتوحة الى مكة والمدينة ، وسرعان ما شملت الحركتان بيت المقدس فجعلتاها مركزاً من مراكز العلم ومزاراً للحجاج ، وتحقق بذلك نَصُّ الحديث الشريف الذي جعل المسجد الأقصى احد المساجد الثلاثة التي تُشَدّ إليها الرحال . ولا يخفى ان الحج الى مكة فُرض على من كان قادراً على تحمل نفقته ومشقته ، لا على العاجز ، فهذا له ان يحج الى ما امكنه من المساجد الثلاثة أو ان يُمْسك . ومن غرائب المؤرخين اهتمامهم بذكر حج الخلفاء والعلماء ، مع قلته إذا قيس عدده بحجّ عامة الناس . فهذا هو سبب ما في السطور التالية من ذكر الطائفة الأولى أكثر من الطائفة الثانية .

سبق أن معاوية بويع بالخلافة في بيت المقدس لا في عاصمته دمشق ، ومغزى تقديمه الأولى على الثانية واضح من الناحيتين الدينية والسياسية ، وسبق ايضاً بيان السبب الديني لا السياسي الذي جعل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عبد الملك بن مروان يُقيم قبة الصخرة والمسجد الاقصى . ويكفي بياناً لمكانة بيت المقدس عند غيرهما من بني أمية ذكر اثنين آخرين منهم . فسليمان بن عبد الملك بويع بالخلافة أيضاً في بيت المقدس ، وكاد ينقل العاصمة من دمشق إليها ، فاكتفى ببنـــاء مدينة الرملة وجعلهـا عاصمة فلسطين ومقره معظم شهور السنة . أما عمر بن عبد العزيز فكان يذهب خاصة إلى بيت المقدس لمحاسبة عماله تحت قبة الصخرة المشرفة .

ولم يكن اهتمام بني العباس ببيت المقدس اقل من اهتمام بني أمية على بعدها من بغداد . فثلاثة من خلفائهم الأولين ذهبوا إليها خاصة للحج . جاء في حوادث سنة ١٤٠ للهجرة أن ابا جعفر المنصور خرج حاجاً فأحرم من الحيرة ، وبعد ان زار مكة فالمدينة توجه الى بيت المقدس ، وبعـــد اربع عشرة سنة ذهب خاصة الى بيت المقدس للحج . وجاء في حوادث سنة ١٦٣ للهجرة ان المهدي سار الى بيت المقدس حاجاً ، وكان معه ابنه المشهور هارون الرشيد . اما المأمون فقد اشتهرت زيارته لبيت المقدس بما تمّ في عهده من ترميم قبة الصخرة وضَرْب فلوس نُقش عليها اسم المدينة تخليداً لذلك[١٢].

ويُقال مثل ذلك عن غير هؤلاء من كثير من الخلفاء والسلاطين على مَرّ العصور .

— ٤ —

لم تفقد البلاد المقدسة ولا المدينة المقدسة مكانتها عند النصارى ،

(١٢) تاريخ الطبري ج٣ ص ١٢٩ ، ٣٧٢ و ج ٤ ص ٥٠٠ ، ١١٠٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولم ينقطع ذهاب حجاجهم اليها ، بزوال حكم الروم البزنطيين وقيام حكم العرب المسلمين ، بل سهلته سياسة التسامح التي اتبعها الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب . ومن اشهر الحجّاج الذين ذهبوا من اوروبا لزيارة المدينة المقدسة بعد الفتح الاسلامي أُسقف من بـــلاد الغول (فرنسا) اسمه آرْكَلْفُوس ، زارها حوالي سنه ٦٧٠ ميلادية في خلافة معاوية بن ابي سفيان ، واقام فيها تسعه أشهر . ومـع ان اهتمامه كان موجهاً الى الاماكن المقدسة عند النصارى فقط ، ففي مقدمة رحلته شيء مختصر عن سور المدينة وابراجه وابوابه ، وعن سوق تجارية كانت تقام فيها في الخريف ، ووصْفٌ لمسجد عمر بن الخطاب بأنه مربع الشكل بسيط البناء ويسع نحـــو ثلاثة آلاف شخص .(١٣)

وقد سبق هذا الاسقف وتبعه حجاج من عامة النصارى ومن خاصتهم ، واستمرت افواجهم في عهد بني أمية ثم في عهد بني العباس . فلما كانت خلافة هارون الرشيد تأصّلت بينه وبين شارلمان صداقة ، فتبادلا الهدايا والسفراء ، واذن الرشيد بإقامة بيوت للحجاج ودير للرهبان تحت رعاية شارلمان في المدينة المقدسة . ولكن قصة إهداء الرشيد مفاتيح كنيسة القيامة الى صديقه تفتقر إلى سند تاريخي معتبر ، فلا ذكر لها ابداً في كتب التاريخ الاسلامي .

وكذلك لا يوجد سندٌ تاريخي يُثْبت نَقْض ما جاء في العهد العمري لنصارى ايلياء بمنع إقامة اليهود فيها . كلا ولا بيّنةٌ تفسّر سبب إهمال العمل بهذا النص . والغالب ان الشرط لم يُلْغَ ، بل

(١٣) Palestine Pilgrim's Text Society, vol. III (London, 1897), P. 4 — 5.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قَلَّ الالتفات اليه تدريجياً في جو التسامح العام ، فربما بدأ بعض اليهود يقتربون من المدينة لرؤية مكان الهيكل من على جبل الزيتون ، كما كانوا يفعلون أثناء المنع الذي أمر به هادريان . او ربما احتال بعضهم فدخل المدينة خلسة وسكن فيها . ومهما كان الأمر فوجود بعضهم فيها قبل الاحتلال الصليبي وارد في بعض كتب المسلمين . ولكن هذه الكتب أخذت منذ القرن الثالث للهجرة تكثر من استعمال اسماء « فلسطين » و « بيت المقدس » و « القدس » ، وتُقلل من استعمال ما أُطلق على البلاد أو على المدينة من الاسماء فيما سبق من الزمن .

ولا شك أنّ لتغيير الأسماء دلالته ، لكنه يصعب تقدير عدد سكان بيت المقدس في أي عصر من العصور الاسلامية . وأصعب من ذلك تخمين عدد كلٍّ من المسلمين والنصارى واليهود ، كل طائفة على حدة . وكتب المؤرخين والجغرافيين والرّحالة التي تشير الى شيء من ذلك يناقض بعضها بعضاً ، وارقامها اشبه بالخيال او المجاز منها بالدقة والصدق ، كما سيظهر فيما يلي من هذا البحث . لكن لاشك ان كثرة سكان القدس كانت قبل الاحتلال الصليبي من المسلمين ثم النصارى مع عدد ضئيل جداً من اليهود ، وازدياد عدد المسلمين كان مطّرداً منذ الفتح . ومن اسبابه اولاً الجاذبية الدينية للمدينة وثانياً استمرار هجرة القبائل العربية الى سائر انحاء فلسطين . وخاصة مدينة القدس ، الى ان ظهر العنصر العربي فيها على غيره . كتب ابن واضح اليعقوبي في اواخر القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) فقال : « أهل فلسطين أخلاط من العرب : من لَخْمٍ وجُذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة »[١٤] .

---

(١٤) كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبي (طبعة ليدن ، ١٨٦٠) ص ١١٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهناك سبب ثالث لازدياد عدد المسلمين في مدينة القدس وسائر فلسطين ، وهو كثرة من دخل في الاسلام من اهلها طوعاً لاكرهاً ، بالموعظة الحسنة والمثل الحسن . فالثابت ان اهل الكتاب في سائر انحاء بلاد الشام قد رحبوا بالمسلمين والحكم العربي ، وفضلوهم على الروم والحكم البزنطي : « لَوِلايتكم أحبُّ الينا مما كنا فيه من الظُّلْم والغَشْم »[١٥] ورافق تفوق العنصر العربي وانتشار الاسلام تغلب اللغة العربية على اليونانية والآرامية في التخاطب ودواوين الحكومة . ولكن هذه التطورات الخطيرة لم تغير سياسة التسامح والتعايش التي مَيزت الحكم الاسلامي العربي ، ووجود هذه الأقليات المهمة من النصارى واليهود في سائر البلاد الاسلامية حتى هذه الأيام شاهد عَدل على نجاح تلك السياسة .

وفيما يلي مقتبسات مختصرة من مؤلفات أربعة من الكتاب عَرفوا مدينتي القدس وخليل الرحمن في القرنين اللذين سبقا الاحتلال الصليبي . وأولهم ابن واضح الذي ذُكر اعلاه ، ففي كتابه المشهور وردت هذه الفقرة المهمة : « ومن أراد أن يسلك من (بلاد) الشام على فلسطين الى مكة سلك جبالاً خشنة حَزْنة حتى يصير الى مَدْين (على بحر القُلْزُم المعروف الآن بخليج العقبة ، مقابل تبوك تقريباً) ، ثم يستمر به الطريق مع أهل مصر والمغرب ، »[١٦] يتضح أن هذا الكلام يتعلق بالطريق الغربي للحج الشامي ، الذي

(١٥) كتاب فتوح البلدان للبلاذري (طبعة ليدن ، ١٨٦٦) ، ص ١٣٧

(١٦) كتاب البلدان لليعقوبي المذكور اعلاه ، ص ١١٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كان يبدأ في الشمال ماراً بنابُلُس فالقدس الشريف فخليل الرحمن فالصحراء . أما الطريق الشرقي للحج الشامي الذي لم يذكره اليعقوبي لشهرته ، فكان أيضاً يبدأ في الشمال ماراً بدمشق فالبلاد الواقعة الى الشرق من نهر الاردن . ثم يلتقي الطريقان ، كما ذكر اليعقوبي مع طريق حجاج المغرب ومصر ، في تبوك قبل الاتجاه جنوباً الى الحجاز .

والاقتباس الثاني هو من كتاب لشمس الدين المقدسي ، الجغرافي الرحالة الفلسطيني الذي ولد في القدس ، وكتب في أواخر القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) . لكنه يميل الى المبالغة ويلتزم في كتابته السجع وتنميق الكلام ، ويُضْمر كرهاً لحكم الفاطميين على مسقط رأسه ، مما دفعه الى ذمّها بعد أن كاد يفضّلها على مكة والمدينة . ذكر اولاً محاسنها فقال « منها المحشر واليها المنشر ، وانما فُضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي (ﷺ) ، ويوم القيامة يُزَفّان إليها فتحوي الفضل كله » . وبعد ان مدح اتقان ابنية المدينة ونظافة اسواقها وعفة أهلها قال « وفيها كل حاذق طبيب ، واليها (يميل) قلب كل لبيب ، ولا تخلو كل يوم من غريب » ، ثم ذكر « عيوبها » فقال : « قليلة العلماء ، كثيرة النصارى » الفقيه (فيها) مهجور ، والأديب غير مشهور ، لا مجلس نظر ولا تدريس ، قد غلب عليها النصارى واليهود ، وخلا المسجد من الجماعات والمجالس »[١٧] .

---

(١٧) كتاب احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي (طبعة ليدن ، ١٨٧٧) ، ص ١٦٥ ـ ١٦٧ . ذكر عن الخليل وجود ضيافة دائمة مع طباخ وخباز وخدام يقدمون العدس بالزيت لكل حاج او زائر من وقف تميم الداري (ص ١٧٢) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في هذا الكلام مبالغة ظاهرة ، ومعظمه لا يثبت بعد التحقيق ، ونصوصه تدلّ على كُره مؤلف سنيّ لحكم خليفة شيعي . فعندما كتب المقدسي هذا الكلام كانت القدس تحت حكم العزيز بالله الفاطمي ، وكانت الخطبة في المسجد الأقصى تقرأ باسمه بعد إذ كانت باسم الخليفة العباسي . وزيادة على ذلك عُرف العزيز بتقريب النصارى واليهود ، واستخدامهم في الوزارة والوظائف العليا ، فكره المسلمون ذلك ، واستهجنوا ان الخليفة تزوج من نصرانية وجعل أخاها بطريركاً في القدس . ومع ذلك حاول العزيز اكتساب ولاء المسلمين في القدس ، فانشأ فيها بقرب الحرم الشريف « دار العلم » في كنيسة سانت حنّه (والدة مريم العذراء) ، لنشر الدعوة الفاطمية بواسطة الدعاة كدأب « دار العلم » الأصلية التي قامت في القاهرة . ولعل هذا يفسر قول المقدسي عن خلو المسجد الاقصى من مجالس الدرس والتدريس ، فهذه كانت حتى ذلك الوقت على مذهب أهل السنة ، فأوقفها الخليفة الفاطمي ، وأقام مكانها مجالس الدرس والتدريس على مذهبه في « دار العلم » .

أما المؤلف الثالث المراد ذكره فهو ناصر خُسْرو الرحالة الفارسي . وصل القدس في رمضان سنة ٤٣٨ للهجرة (آذار ١٠٤٧ للميلاد) وهذا ماكتبه عن الحج اليها : « وأهل الشام وما جاورها من البلاد يُسمون بيت المقدس ، القدسَ . ويذهب اليها في موسم الحج من لا يستطيع الذهاب الى مكة من أهل تلك البلاد ، فيؤدون فرائض الحج ويضحُّون الأَضاحي في يوم العيد كما لو كانوا في مكة . وفي بعض السنين يبلغ عددهم في ذي الحجة نحو عشرين ألفاً كبارهم وصغارهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكذلك يأتي إلى المدينة من بلاد الروم وغيرها كثير من النصارى واليهود لزيارة الكنيسة (كَلِيسَ بالأصل الفارسي) والكنيس « كَنِشْت بالأصل الفارسي » .

والمقصود بالكنيسة هو كنيسة القيامة ، وقد زارها خسرو ووصفها ، اما المقصود بالكنيس فغير معروف ، اذ لم يقل خسرو عنها شيئاً ، وهو أول مسلم يذكرها ، ولعله سمع بها دون أن يراها اذا كانت موجودة حقيقةً لا مجازاً ، فقد سبق انه لم يكن في القدس عند الفتح الاسلامي غير النصارى وكنائسهم ، ووجود اليهود فيها كان ممنوعاً قبل الفتح وأيضاً بعده بحسب العهد العمري . فاذا كان المسلمون قد تساهلوا بمرور الزمن فسمحوا لليهود بالاقامة في القدس ، فان الشريعة الاسلامية لا تجيز بناء كنيسة أو كنيس جديدة ، وتسمح فقط بتعمير الموجود أو توسيعه . والغالب ان اليهود استعملوا بيتاً من بيوت السكن كنيساً ، فلم يحتاجوا الى إذْنٍ خاص ، وهذه خطة اتبعوها اثناء حكم المماليك ثم حكم الأتراك .

لكن خسرو يفسّر ما في كلام المقدسي من غموض عندما قال « فيها كل حاذق طبيب » ، فخسرو يذكر انه وجد في المدينة مستشفى (بيمارستان) حُبست عليه أوقات غنية ، صُرف ريعها لدفع رواتب الأطباء وسدّ نفقات العلاج والدواء وصُرف ريع أوقافٍ أخرى في الخليل لإطعام الحجاج والزوار هناك كما المقدسي قبل نصف قرن . ويقول خسرو ان عدد سكان القدس كان عند زيارته لها عشرين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفاً [١٨] ويلاحظ ان هذا العدد يساوي عدد الحجاج السنوي ، فهل كان هذا وذاك تخمينَ زائر أو رجماً بالغيب معناه الحقيقي في الحالتين كثرةٌ من الناس لايعلم عددهم الا الله .

ورابع المؤلفين ، أبو حامد الغزالي ، يمثلُ أوضح تمثيل ارتباط أداء فريضة الحج بطلب العلم ومكانة القدس والخليل في ذلك . كان الغزالي في سنة ٤٨٨ للهجرة (١٠٩٥ للميلاد) في أعلى منصب علمي ، وهو المدرّس الأول في أعلى معهد علمي وهو المدرسة النظامية في بغداد . وبعد أزمة نفسية ترك المنصب زاهداً في الدنيا وسافر الحج : « فاظهرتُ عزم الخروج الى مكة ، وانا أدبر في نفسي سفر الشام ... (وفي دمشق اعتكف بالجامع الأموي مدة) ثم رحلتُ منها الى بيت المقدس ، (وكنت) أدخل كل يوم (مسجد قبة) الصخرة وأغلق الباب على نفسي . ثم تحركت فيَّ داعية الحج ، والاستمداد من بركات مكة والمدينة ، وزيارة رسول الله عليه السلام ، بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه ، فسرت الى الحجاز [١٩] ».

وهذا الذي أجمله الغزالي فصّله غيره من الكتّاب ، فقالوا إنه « جاور » في حرم بيت المقدس ، واقام في زاوية فوق باب الرحمة

---

(١٨) سفرنامه لناصر خسرو : طبعة الأصل الفارسي بعناية الدكتور نادر وزين بور (طهران ، ١٩٧١) ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٧ ، والترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب (بيروت ١٩٧٠) ص ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٧٣

(١٩) المنقذ من الضلال (مطبوعة الشيخ محمد جابر . القاهرة . بلا تاريخ) ص ٤٧ ـ ٤٩

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من أبواب الحرم ، كان جاور فيها قبله قدوته في الزهد والعلم ، الشيخ نصر المقدسي النابلسي ، وذكروا ان الغزالي « درّس » في المسجد الأقصى ، وأنه كتب مادة دروسه وسمّاها « الرسالة القدسية » ، قال في مقدمتها إنها كتبت في المسجد الأقصى (٢٠) وقد حقّق كاتب هذه السطور الرسالة القدسية وشرح غامضها وعلّق عليها وترجمها إلى اللغة الانكليزية ، ثم نشرها مع مقدمة بهذه اللغة المركز الاسلامي الثقافي في لندن (٢١) .

يستنتج مما سبق وجود أوقاف في القدس والخليل كان يصرف ريعها على الحجاج وطلاب العلم والضيوف ، وكذلك وجود بيوت وزوايا لإيواء القادمين للمجاورة أو المارين في طريقهم الى مكة أو العائدين منها ، وأيضاً وجود مستشفى واحد على الأقل في القدس لمنفعة المقيمين والقادمين .

- ٥ -

« لم يُرَ في الاسلام مصيبة أعظم من ذلك » . هكذا وصف مؤرخ القدس وقاضيها سقوطها في أيدي الصليبيين في سنة ٤٩٢ للهجرة (١٠٩٩ للميلاد) ، عندما كانت كلمة المسلمين متفرقة أشد التفرق وقوتهم الحربية في غاية الضعف . وهذا ليس مكان بحث ما ارتكبه الصليبيون من الجرائم التي اتفق المؤرخون في الشرق والغرب على

---

(٢٠) فصّلنا ذلك وغيره في مقالة « الغزالي في دمشق والقدس » نشرت في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق : العدد الأول من المجلد ٤١ ، ص ٩٩ – ١١١

(٢١) Al-Ghazali's Tract on Dogmatic Theology (London, 1965).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصفها بالوحشية . قيل انهم كتبوا الى البابا بعد دخول المدينة يفتخرون أن خيولهم خاضت في دماء المسلمين الى الركب . فقد قتلوا المسلمين رجالاً ونساءً واطفالاً بلارحمة أو تمييز بين المحارب وغير المحارب . قال ابن الأثير : « لبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون المسلمين .. وقتلوا في المسجد الاقصى (غالباً يقصد الحرم الشريف مع المسجدين) ما يزيد على سبعين الفاً ، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف [٢٢] . .» وأعاد مجير الدين العليمي ذلك وأضاف اليه قوله : « حصروا المسلمين في الحرم الشريف ، وأعطوهم ثلاثة أيام للخروج من المدينة ، والمتأخرون يُقتلون . . » [٢٣]

وهكذا بالقتل والإجلاء أخلى الصليبيون مدينة القدس من المسلمين وسكنوا في بيوتهم ، وحوّلوا مسجد قبة الصخرة الى كنيسة ، وجعلوا المسجد الأقصى ثكنة لفرسانهم وأسفله اصطبلاً لخيولهم . اما سكان المدينة من نصارى الشرق فقد ابقاهم الصليبيون لكن جرّدوهم من السيادة الدينية بالغاء البطريركية الأرثوذكسية وإقامة اخرى لاتينية مكانها . واما من كان في المدينة من اليهود فقد جمعهم الصليبيون « في الكنيس وأحرقوها عليهم » [٢٤] .

---

(٢٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير (طبعة ليدن ، ١٨٦٤) ج ١٠ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢٣) كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل مجير الدين العليمي (القاهرة ، ١٢٨٣) ص ٢٧٤ .

(٢٤) ذيل تاريخ دمشق لأبي يَعْلَى حمزة القلانسي (بيروت ، ١٩٠٨) ، ص ١٣٧ : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (طبعة دار الكتب المصرية ، ١٣٥٣ هـ) ، ج٥ ، ص ١٥٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

واسرع المستنفرون والمستنجدون من القدس الى كل ذي جاه من خليفة أو سلطان ، فخطبوا في المساجد وبكوا وأبكوا ، لكن كما قال المؤرخ « وقع الخلاف بين السلاطين السلجوقية فتمكن الفرنج من البلاد »[٢٥] وقال الابيوردي في تخاذل المسلمين قصيدة طويلة اختار منها ابن الأثير اثنين وعشرين بيتاً ، وفيما يلي ما اخترناه مما جاء في ابن الأثير .

مَزَجْنا دماءً بالدموع السّواجِمِ ... فلم يبْقَ منّا عرْضَةٌ للمراحمِ
وشرُّ سلاحُ المرء دمعٌ يُفيضه ... اذا الحرب شبَّت نارُها بالصوارم
فيا بني الاسلام ان وراءكم ... وقائعَ يُلْحقن الذُرا بالمناسم
أتَهْوِيمةً في ظلّ أمنٍ وغِبْطة ... وعيش كنوّار الخميلة ناعم ؟
وإخوانكُم بالشام يُضْحي مَقيلُهم ... ظهورَ المذاكي أو بطون القشاعم
تسومهمُ الروم الهوانَ وأنتمُ ... تجرونَ ذيل الخَفْض فِعْل المسالم
وتلك حروبٌ منْ يَغِبْ عن غمارها ... ليسْلَمَ يَقْرَعْ بعدها سنَّ نادم
يكاد لهُنَّ المُسْتَجِنُّ بطَيْبةٍ ... يُنادي بأعلى الصوت يا آل هاشم!
أترْضى صناديدَ الأعاريب بالأذى ... ويُغْفي على ذلٍّ كُماةُ الأعاجم[٢٦]

ومن نكد الدنيا على المسلمين من العرب والأعاجم أنهم تحملوا الأذى والذل نحو تسعين سنة الى أن خلّص صلاح الدين الأيوبي

---

(٢٥) تاريخ ابي الفداء (استانبول ، ١٢٨٦) ج٢ ، ص ٢٢٢ .

(٢٦) تاريخ ابن الاثير ، ج١٠ ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ومنها سبعة ابيات في النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٥١ ـ ١٥٢ ، وثمانية ابيات في تاريخ ابي الفداء ، ج ٢ ص ٢٢٢ ، وستة عشر بيتا في الانس الجليل ص ٢٧٤ . وفيما يلي تفسير بعض الغريب :
الذرى (او الذرا) جمع ذروة ، وهي الاعالي . =

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القدسَ من أيدي الصليبيين في يوم الذكرى السنوية لإسراء رسول الله اليها ، أي يوم الجمعة في السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣ للهجرة (الثاني من تشرين الأول سنة ١١٨٧ للميلاد) ، فلم ينتقم صلاح الدين من الصليبيين لما ارتكبوه من الجرائم الوحشية ، بل عفا ورحم وأعطاهم الامان لانفسهم واموالهم حتى يبلغوا مأمنهم في الساحل ، وفرض على الاشخاص فدية خفيفة أعفى منها الأرامل واليتامى والفقراء .

وبينما كان الفرنج يخرجون من المدينة أخذ جنود صلاح الدين يعاونهم مَنْ عاد اليها من المسلمين وعلى رأسهم العلماء ، يزيلون آثار النجاسة من مسجدي الصخرة والأقصى ، فغسلوا وبخّروا ورشّوا بماء الورد . وفي أول يوم جمعة بعد الفتح صلّى المسلمون وصلاح الدين وجنده معهم في المسجد الاقصى ، وألقى ، بطلبٍ من صلاح الدين ، قاضي دمشق محيي الدين بن محمد القرشي خطبة خاصة قبل الخطبة المعتادة ، جاء فيها على ذكر الإسراء والمعراج والقبلة الاولى والمساجد التي تشد اليها الرحال الى ان قال :

« إياكم عبادَ الله أن يَستزلكم الشيطان ... فيَخيلُ لكم أن هذا النصر (كان) بسيوفكم الحداد وخيولكم الجياد ... لا والله ، ماالنصر إلا من عند الله ، فاحذروا عبادَ الله بعد ان شرّفكم الله بهذا الفتح الجليل ... أن تقترفوا كبيرة من مَنَاهيه ... والجهاد الجهاد ! ... انصروا الله ينصركم ...

= المناسم جمع منسم (اي خف البعير) ، والمقصود بذلك العالي والواطي .

التهويم هزّ الرأس من النعاس ؛ المقيد موضع القيلولة او القوم في الظبيرة .

المذاكي (اي المذكيات مفردها المذكي وهي الخيول .

القشاعم (جمع قشعم ـ أمّ قشعم هي العنع . والمقصود بذلك المصائب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

خُذُوا في حسْم الداء وقطع شأفة الأعداء ، وَطهّروا الأرض من هذه الأنجاس التي اغضبت الله ورسوله ... » (٢٧)

وكان صلاح الدين أول مَنْ لبّى نداء الجهاد . فدبّر شؤون المدينة قبل مغادرتها وأعاد لهـــا صفتها الاسلامية العربية ، وامر بتسليم بيوت من قُتلوا أو أُخرجوا لورثتهم ، وقوّاهم بإقطاع بعض أحْياء المدينة لقبائل عربية فأنْزل بني حارث قرب القلعة ، وبني مُرّة في سوق الفخر (عُرف بخان الزيت فـيما بعد) ، وبني سعد في الحي الذي عُرف فيما بعد بالسعدية ، وبني زيد بقرب باب الساهرة ، وأمر بترميم المسجد الأقصى ، وجاء اليه بالمنبر الذي « لم يُعمل في الاسلام مثله» من حلب حيث صُنع على مدى سنين بأمر نور الدين زَنْكي خاصة باسم المسجد الأقصى (وهذا هو المنبر الذي حُرق في سنة ١٩٦٩ اثناء الاحتلال الاسرائيلي) .

وانشأ صلاح الدين في المدينة عـــدداً من المعاهد منها رباط للصوفية ومستشفى (بيمارستان) للمرضى ، قـد يكون هو الذي رآه ناصر خسرو أو ماتركه الصليبيون ، وقد يكون إنشاءً جديداً . وأنشأ صلاح الدين ايضاً المدرسة التي عرفت فيما بعد باسمه وفوّض إدارتهـا الى القاضي بهـــاء الدين بن شداد ، والغالب انها خلفت « دار العلم » الفاطمية التي أنشأها العزيز في كنيسة سانت حنّه (ام مريم العذراء) وقد أعاد الصليبيون بناءها (٢٨) . وأوقف صلاح الدين على هـــذه

---

(٢٧) كتاب الأنس الجليل ص ٢٩٤ ــ ٢٩٨ (نص الخطبة كاملا) .
(٢٨) هذا ما يستنتج من رواية ابي الفداء في تاريخه (تحت سنـة ٥٨٨ هـ) ، ج ٣ ص ٨٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعاهد وغيرها الأوقاف لضمان نفقة إدارتها . ثم أمر بتعمير سور المدينة وحفر خندق حوله . وشرع مقبرة للمجاهدين بقرب باب الساهرة ، بالإضافة الى مقبرة مأمن الله (مايلا) التي دنسها الصليبيون ومقبرة باب الرحمة خارج سور الحرم الشريف من الشرق .

ولم يرحل نصارى الشرق من أهل القدس مع الصليبيين ، بل طلبوا من صلاح الدين ان يُبقيهم ففعل ، مع أن كثيراً منهم شايع الفرنج وساعدهم . ولما رحل بطريرك اللاتين مع الفرنج الذين رحلوا خلا الميدان لإعادة تأسيس البطريركية الارثوذكسية التي الغاها الصليبيون وقد تَمَّ ذلك برضى صلاح الدين ومساعدته .

وأما اليهود الذين لم يُبْقِ الصليبيون منهم حيّاً في المدينة ، فقد سمح صلاح الدين أن يقيم بعضهم في المدينة ، وفتح جميع بلاد مملكته للمضطهدين منهم ، فجاؤوا اليها يطلبون الأمن ويلاقون العدل ، كما شهد بذلك مؤرخهم الشهير (٢٩) . ولكن لايمكن معرفة عددهم في القدس أثناء حكم صلاح الدين أو بعده ، ويمكن تقديره على أساس ان الصليبيين بعد ان دخلوا القدس جمعوا كل اليهود في بناء واحد ثم حرقوه عليهم . فالعدد الممكن جمعه في بناء واحد من أبنية تلك الأيام بقدر بالعشرات وعلى الاكثر ببضع مئات . والغالب ان صلاح الدين لمْ يأذن بتجاوز هذا الحد ، حرصاً منه على إبقاء الأغلبية للمسلمين مع أقلية من نصارى الشرق وأقلية أصغر منها من اليهود .

---

(٢٩) Heinrich Graetz, History of the Jews (London, 1892), vol. III, P.475.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ويستحيل كما ذكر أعلاه تقدير عدد المسلمين او النصارى أو اليهود ، كل طائفة على حدة . فالرقم الذي ورد في رحلة ناصر خسرو قبل نصف قرن من الاحتلال الصليبي وهو عشرون الفاً كان لجميع السكان دون تقسيمه بين الطوائف المختلفة . وهذا الرقم لامعنى له إذا قيس بما قاله ابن الأثير من أن عدد قتلى المسلمين في الحرم الشريف وحده بلغ سبعين الفاً . فلا ناصر خسرو أحصى السكان ولا ابن الاثير أخذ عمن أحصى عدد القتلى ، وهما سيّان في اعتمادهما على التخمين ، وكل ما يمكن استنتاجه من كل منهما أن عدد السكان كان كثيراً وأن عدد القتلى كان عظيماً ، اما إحصاء هذا أو ذاك فعلمه عند الله .

- ٦ -

يؤخذ من رواية ابن الأثير ان الصليبيين قتلوا في الحرم الشريف عدداً من الأئمة والعلماء والعباد والزهاد « ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف » . وهذه الرواية تبيّن ان هؤلاء كانوا من المجاورين بقرب الحرم الشريف للعبادة والدرس عملاً بسنة كانت متبعة منذ الفتح الاسلامي . وزادها مرور الزمن تأصيلاً وانتشاراً . ثم أكّدها وسهّلها ما أنشأه صلاح الدين وخلفاؤه من الزوايا والرُّبط والمدارس بقرب الحرم الشريف ، وما حَبَسوه عليها من اوقاف أمّن رَيْعها ما احتاجه المجاورون من مأوى وطعام وكسوة .

ومجاورة أهل العلم والتقوى عند حرم بيت المقدس ضاهت مجاورتهم عند الحرمين الشريفين في مكة والمدينة . وجرت عادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المجاورين التنقّل من حرم الى حرم رغبةً في اكتساب المزيد من البركة والعلم . وأخذ كثيرون منهم يأتون جماعات مع عائلاتهم وأقربائهم ويقيمون بجوار الحرم الذي اختاروا الإقامه بجواره . ومن هذه الجماعات طائفة هاجرت من المغرب وجاورت عند الحرم الشريف في بيت المقدس . بقرب الزاوية الجنوبية الغربية لحائط الحرم ، وفي أقرب مكان للمسجد الأقصي ، فعُرفت هذه الناحية بحيّ (حارة) المغاربة .

وكان المغاربة في هذا الحي عند الاحتلال الصليبي ، فقُتل بعضهم وأُجلي البعض الآخر . ثم عاد أبناء هؤلاء وأحفادهم الى المجاورة بعد الفتح الصلاحي . وبعد خمس سنوات منه خلف الملك الأفضل والده صلاح الدين على مُلك دمشق والقدس ، فأوقف في سنة ٥٨٩ للهجرة أرض حارة المغاربة عليهم ذكوراً وإناثاً « ليسكنوا في مساكنها وينتفعوا بمنافعها » ؛ وأنشأ لهم في الحارة نفسها مدرسة عرفت بالأفضلية . وحدود الحارة هذه كما وردت في الوقفية هي : من الجنوب سور المدينة ، ومن الشرق حائط الحرم الشريف ، ومن الشمال طريق باب السلسلة المؤدي الى الحرم الشريف ، ومن الغرب حارة الشرف حيث سكن الحكام والقضاة والوجهاء .

يظهر من نص الوقفية ان صحيفتها الأصلية قد ضاعت ، فأعيد تقييد شروط الوقف بأمر القاضي الشرعي « بكتاب متصل الثبوت بحكم الشريعة » . وقد تمّ ذلك مرتين الاولى في سنة ٦٦٦ للهجرة (١٢٦٧ للميلاد) بعد نحو أربعين سنة من وفاة الملك الأفضل ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والثانية في سنة ١٠٠٤ للهجرة (١٥٩٥ م) بعد نحو ثمانين سنة من ابتداء الحكم العثماني [٣٠] .

وبعد موت الأفضل بنحو قرن أي في سنة ٧٠٣ للهجرة (١٣٠٣ للميلاد) أوقف عمر بن عبد الله بن عبد النبي المَصْمودي المجرّد ، أحد علماء المغاربة وأثريائهم ، زاوية في حيّهم لمنفعة مجاوري المغاربة [٣١] وفي سنة ٧٢٠ للهجرة (١٣١٦ للميلاد) أوقف شُعَيْب ابن محمد بن شعيب المعروف بأبي مَدْيَن ، وكان ايضاً من علماء المغاربة وأثريائهم ، زاوية أخرى في حيّ المغاربة ، وأوقف عليها وعلى القادمين من المغرب الى القدس الشريف رَيْع قرية عين كارم . وقد اشتهر أبو مدين شهرة طمست اسم الملك الافضل واسم المصمودي المجرّد ، فصارت أوقاف حيّ المغاربة كلها تُعرف بوقف أبي مدين [٣٢]

يُعرف الحد الشرقي لهذه الاوقاف بحائط البراق ، لان البراق الذي حمل رسول الله ﷺ من مكة الى بيت المقدس ليلة الإسراء ربطه جبريل هناك . وجزء صغير من هذا الحائط له مكانة دينية عند اليهود الذين يعتقدون ان المداميك الستة السفلى منه هي بقية سور الهيكل

---

(٣٠) المحكمة الشرعية بالقدس الشريف : سجل رقم ٧٧ صفحة ٥٨٨ . وقد نشرنا النص الكامل ملحقا ثانيا في كتابنا :
The Islamic Pious Foundations in Jerusalem: Origins, History and Usurpation by Israel (London, 1978), p. 59
والمرجو تصحيح خطأ مطبعي في السطر الرابع من النص العربي، فالتاريخ الصحيح هو « شعبان سنة الف واربع » ــ لا اربعمئة !

(٣١) الأنس الجليل ، ص ٣٩٧ ، ٥٨٠ (دفن المجرد في مقبرة مأمن الله) .

(٣٢) نشرنا نص وقفية ابي مَدْين في الملحق الاول ص ٥٥ ــ ٥٧ من كتابنا المذكور (هامش ٣٠ أعلاه) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الذي دمّره الرومان سنة ٧٠ للميلاد . ولما أقاموا على أنقاض أورشليم مدينة رومانية جديدة باسم ايلياء منعوا اليهود من دخولها ، وجدّد أمر المنع الامبراطور هيراقليوس قبيل الفتح الاسلامي . وعليه لم يجد المسلمون الفاتحون في إيلياء أحداً من اليهود ، بل ورد في عهد الأمان الذي أعطاه عمر بن الخطاب لأهلهـــا من النصارى منع اليهود من الإقامة فيها .

ولا ذكر لاسمية حائط البراق عنـــد اليهود في كتب التاريخ الإسلامي . فاذا كان تسامح المسلمين قد مكّن بعض أتقياء اليهود رغم المنع الشرعي من الاقامة في المدينة ، فانه لا يستبعد إن هم زاروا الحائط خلسة للبكاء على أطلال مجدهم الغابر ، ولكن هـــذه الزيارة لم تذكرها المصادر العربية على مرّ العصور ، ولا شيء في هذه المصادر عن « مبكى اليهود » أو « حائط المبكى » أو « الحائط الغربي » ، فهـــذه أسماء ظهرت في القرن التاسع عشر في كتب الرحّالة الأوربيين ، إما نقلاً عن اليهود أو بناء على المشاهدة .

ونظرة أخرى الى البيّنات تبيّن ان ناصر خسرو ، الرحالة الفارسي الذي زار القدس قبل الاحتلال الصليبي بنحو خمسين سنة ، لم يذكر المبكى ولا بـكاء اليهود عند حائطه . وكذلك الغزالي الذي أقام بزاوية داخل الحرم الشريف قبل الاحتلال الصليبي بنحو أربع سنوات لم يذكر من ذلك شيئاً . ولا علم لنا أن غيرهما من الرحالة غير المسلمين قد ذكر شيئاً من ذلك . فهذا الراهب الألماني فِلِكْس فابري الذي زار القدس في سنة ١٤٨٤ في أواخر عهد المماليـــك

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكتب رحلة مفصلة في أربعة مجلدات لم يُشر فيها الى « الحائط الغربي » أو بكاء اليهود عنده . ومع أنه كان كاثوليكياً متعصباً كره نصارى الشرق كرهه لليهود والمسلمين ، فقد نسي تعصبه عندما زار بلدة الخليل ، فوجد فيها مستشفى للفقراء فأعاد ما قاله المقدسي وناصر خسرو من وجود مطبخ ومخبز لإطعام الفقراء والحجاج(٣٣) .

لكن بعض الرحالة من يهود أوربا ذكروا « الحائط الغربي » ذكراً غامضاً . ومن أشهرهم الحاخام بنيامين ، أحد رعايا مملكة نافار الذي زار القدس حوالي سنة ١١٦٨ أثناء الحكم الصليبي . ولما كان دخول اليهود اليها حينئذ ممنوعاً ، فالغالب ان بنيامين دخلها متخفياً ، فمعظم ماكتبه ، وهو قليل جداً ، يشبه الحكاية عن الغير أكثر من كلام مَنْ رأى رأي العين . جاء في المقدمة العبرية انه وصف « ما رأى وروى ما سمع . يقول إن سكان القدس كانوا من الفرنج ونصارى الشرق . وعدم ذكر المسلمين مفهومٌ ، فالصليبيون أفنوهم كما أفنوا اليهود ، لكن بنيامين يزعم انه وجد من اليهود فيها نحو مئتين بقرب القلعة عند مدبغة دفعوا عنها أجرة للملك الفرنج ، وخلافاً لعادته في ذكر أحوال من رأى من اليهود في المدن الأخرى وذكر أسماء وجهائهم ، فانه لم يقل إنه رأى احداً من يهود القدس أو كلّمه . وهذا يدعو الى الشك في صحة قوله . ويزيد هذا الشك قوة أن بنيامين كرر الخطأ بنسبة بناء قبة الصخرة الى عمر بن الخطاب ، والخطأ الثاني في الجملة نفسها هو قوله « ويوجد أمامها الحائط الغربي ، أحد حيطان الهيكل ، وهو يسمى باب الرحمة ،

(٣٣) Palestine Pilgrims ' Text Soiciety . vol . X (part 2), p. 417

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« كل اليهود يذهبون اليـــه للصلاة ، أمام حائط ساحة الهيكل » (أي ساحة الحرم الشريف) . أما موقـع باب الرحمة عند المسلمين فالى الشرق لا إلى الغرب من قبة الصخرة ، والادعاء بأن « كـل اليهود » يصلّون عند الحائط مستحيل تحت حكم الصليبيين عندما كان مسجد قبة الصخرة كنيسة . والمهم ان بنيامين لم يقل إنه هو زار الحائط الغربي أو صلّى عنده أو رأى غيره يصلي هناك [٣٤] .

وبعد بنيامين بثلاثة قرون أي حوالي سنة ١٤٨٧ ، زار القدس أثناء حـكم المماليك حاخام آخـــر من ايطاليا اسمه عباديه جاري . ورحلته ايضاً تذكر « الحائط الغربي » ، ولكنه هـو أيضاً لم يقل إنه صلّى عنده او رأى غيره من اليهود يصلّي هناك ، مع أنه يذكر بوضوح أنه صلّى عند قبة راحيل في الطريق من بيت لحم الى القدس . ومما ذكره الحاخام جاري وجود كنيس لايدخلها النور الا من باب واحد ، ووجود جامع للمسلمين ملاصق لها ، ورَوَى ماقيل له من ان عدد سكان المدينة من جميع الطوائف بلغ أربعة آلاف عائلة منها سبعون عائلة يهودية في غاية الفقر [٣٥] . ولانتردد في رفض هـذا التقدير للسبب الذي جعلنا نرفض تقدير ناصر خسرو وتقدير ابن الأثير فيما سبق .

---

(٣٤) رحلة بنيامين : للرحالة الرّبي بنيامين بن يونة التطيلي النيناري الاندلسي . ترجمها الى العربيـة عزرا حداد (بغداد ، ١٩٤٥) ص٩٩ — ١٠١ . عرّف هذا المترجم اليهودي الحائط الغربي بقوله « هو حائط البراق المعروف اليوم بحائط المبكى ، ويسميه اليهود الحائط الغربي للهيكل الذي عمّره هيرودتس » . راجع كلام بنيامين في ترجمةانكليزية لرحلته في مجموعة عنوانها :

Early Travels in Palestine, edited by Thomas Wright (London, 1848), p. 83

(٣٥) راجع رحلة عباديه جاري في مجموعة عنوانها :

Jewish Travellers, edited by E.N. Adler (London, 1930), p. 234 — 235

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بناء على هذا كله يمكن اعتبار كلام الحاخامين بنيامين وجاري عن « الحائط » الغربي وصلاة اليهود عنده من باب التمنّي لا من باب وصف الواقع . أما ماقاله الثاني من وجود كنيس ملاصق لجامع فثابتٌ في كتبه مؤلف مسلم معاصر وهو مجير الدين العُلَيْمي مؤلف كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل . ففي هذا الكتاب يرد ذكر الكنيس والجامع الملاصق له ، وكذلك وجود « حارة اليهود » الى الغرب من حارة المغاربة وحارة الشرف[٣٦] .

(٧)

خلف سلاطينُ المماليك الأيوبيينَ على حكم مصر وسورية ، وبدأ حكمهم بتخليص العالم الاسلامي من شرّ المغول ، إذْ كسروهم في معركة عين جالوت في شمال فلسطين سنة ١٢٦٠ ، وبعدها بثلاثين سنة أخرجوا الصليبيين من آخر حصن لهم في عكا . وكان للمماليك فضل على القدس الشريف ، فازدهر العلم فيها أثناء حكمهم ، وجاءها العلماء وطلاب العلم من جميع انحاء العالم الاسلامي ، وسهّل ذلك ما أقامه السلاطين ونوابهم وعمالهم في المدينة من المدارس والرُّبُط والزوايا والخانات (الفنادق) والسُّبُل (لماء الشرب) والاسواق (التي اشتهر منها بصورة خاصة سوق القطّانين بقرب الحرم الشريف) والحمّامات ، وما أوقفوه على هذه المؤسسات من الاوقاف لينفق ريْعها على مَنْ ينتفع بمنافعها .

واهتم سلاطين المماليك اهتماماً خاصاً بالقدس الشريف ، وصيانة مسجديه وحرمه وترميم قبتي الصخرة والأقصى ، وأضافوا إلى سور

(٣٦) الانس الجليل ص ٤٠٢ ، ٦٣٣ – ٦٣٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ساحة الحرم من الداخل أروقة جميلة في جهتي الشمال والغرب ، وكذلك انشأوا مآذن باسقة في الجهتين . وكانوا يحجون الى القدس . فهذا الملك الظاهر بَيْبَرْس (بطل معركة عين جالوت) زارها مرة في سنة ٦٦٠ للهجرة ومرة أخرى بعد ثلاث سنوات وزيارة الملك الناصر قَلاَوُون وَصفَ مَوْكبَها المؤرخ هكذا : « ثم بدا له زيارة القدس الشريف ، فنزل في يوم الخميس رابع جمادى الأولى من سنة سبع عشرة وسبعمائة وسار ومعه خمسون أميراً .. وكتب الى الامير تنكز نائب الشام أن يلقاه بالإقامات (اي لوازم السفر كالخيام وغيرها) لزيارة القدس .. فتوجه الى القدس وزاره [٣٧] وزار المدينة حاجاً الملك الأشرف قَايتْباي سنة ٨٨٠ للهجرة ، وبنى في ساحة الحرم الشريف بقرب باب السِّلْسلة من الداخل المدرسة الاشرفية التي فاقت الصلاحية في جمال البناء وضاهتها بما رُتّب لها من المدرسين والفقهاء .

وكان لسلاطين المماليك في القدس ثلاثة من الممثلين الرئيسيين : نائب السلطنة وشيخ الصلاحية وناظر الحرمين . اما الأول فكان الحاكم العام ، وأما الثاني فكان قاضي القضاة يعين برسوم سلطاني ليدير المدرسة الصلاحية التي كان فيها من المدرسين قاضٍ لكل مذهب من المذاهب الأربعة ، وأما الثالث فقد استحدث المماليك وظيفته للاشراف على حرم القدس وحرم الخليل وخدمة المساجد فيهما والاهتمام بالحجاج اليهما .

أما المدارس التي وُجدت في القدس فقد أحصاها في سنة ٩٠٠

(٣٧) النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٥٥

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للهجرة قبيل انتهاء عهد المماليك ، مؤرخ المدينة وقاضيها مجير الدين العليمي ، قبلغ عددها مايزيد على الخمسين على رأسها المدرسة الصلاحية . واشتهر من المدارس التي أسسها المماليك من بين كل المدارس اثنتان : أولاهما التنكزية التي انشأها الأمير تنكز الناصري سنة ٧٢٩ للهجرة عند باب السلسلة من الخارج ، وظلت عامرة حتى العهد العثماني ، فصارت مقرّ المحكمة الشرعية ، وفي عهد الانتداب البريطاني صارت منزلاً لرئيس المجلس الاسلامي الأعلى ، وثانيتهما الأشرفية التي ذكرت أعلاه ، وقد وصفها مجير الدين بانها الجوهرة الثالثة في ساحة الحرم الشريف بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى ، وربما كان آخر من رآها في عزّها وأقام فيها ، وقال قصيدة في مدحها ، المتصوف الرحّالة عبد الغني النابلسي في سنة ١١٠١ للهجرة (١٦٨٩ للميلاد) .

وقبل ختام هذا الفصل عن القدس في عهد المماليك نذكر ثلاث مسائل متعلقة بما سبق من البحث زيادة في الإحاطة والوضوح . أولها الحج الى القدس مقروناً بالحج الى مكة أو بدلاً منه ، فقد انتشر ذلك وتأصل حتى صار زائر القدس يوصف « بالمقدّس » كما كان زائر مكة يوصف « بالحاج » . وزاد تعلق المسلمين بالقدس بعد الفتح الصلاحي ازدياداً مطرّداً ، وتردد صداه في عدد من الكتب الخاصة بالمدينة ومسجدها . ومن هذه الكتب « كتاب الأنس في فضائل القدس » لبهاء الدين ابن عساكر ، وقد القى المؤلف مادة كتابه دروساً في المسجد الأقصى ، والمؤلف هو ابن المؤرخ المشهور وتوفي سنة ٦٠٠ للهجرة (١٢٠٤ للميلاد) . ومنها كتاب « إتحاف الأخصّا في فضائل المسجد الأقصى » لكمال الدين السيوطي ، كتبه

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في القدس وغالباً في المسجد الأقصى في سنة ٨٧٤ للهجرة (١٤٧٠ للميلاد)، والمؤلف هو غير جلال الدين السيوطي مؤلف كتاب الاتقان في علوم القرآن .

وثاني المسائل حقيقة عن مدينة القدس غير معروفة ، فالمشهور عند جميع المؤلفين انها ظلت كلها داخل الاسوار ، ولم يبدأ البناء خارجها إلا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ولكن هذا ينقضه ما جاء في كتاب لشاهد عيان وهو القاضي مجير الدين ، فقد قال إن أحسن الأماكن بظاهر القدس كانت أرضاً الى الجنوب الغربي عُرفت « بالبقعة »، أوقفها صلاح الدين على خانقاه الصوفية ، ووجدت في عهد المؤلف في تلك الناحية « قصور مبنية بالبناء المحكم ، وعُلاّكها في كل سنة يقيمون بها في زمن الصيف مدة اشهر إقامة استيطان » . ووجد الى جانب أرض البقعة هذه من جهة الشمال « قرية » أبي ثور ، نسبة الى المجاهد شهاب الدين أحمد القرشي الذي شهد فتح القدس في جند صلاح الدين راكباً ثوراً . وقد وقف القريةَ عليه وعلى ذريته الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين في سنة ٥٩٤ للهجرة . وكان بالقرية قبلاً ديرٌ للروم ، وهذا هو أصل الاسم الحديث « دير أبي ثور » ، ويُلفظ بالعامية محرّفاً دير أبي « طور »[٣٨].

وثالث المسائل توضيح أمر الكنيس التي ذكرها الحاخام عباديه ، وأيده في ذلك مجير الدين . فالغالب أن البناء كان بيتاً استعمله اليهود للصلاة ، ولما كان البيت ملاصقاً لجامع للمسلمين تقدم بعضهم الى القاضي

---

(٣٨) الأنس الجليل ، ص ٤٠٩ ــ ٤١٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

الشافعي بشكوى ، فحكم ان لليهود أن يسكنوا البيت ، لكن لايجوز لهم استعماله كنيساً ، لأن إحداث الكنائس والكنس في الاسلام غير جائز شرعاً . فبعدها هدم بعض المسلمين البناء ، فرفع اليهود الأمر الى السلطان قايتباي في القاهرة . ويقول مصدر يهودي إن أثرياءهم دفعوا مبلغاً الى خزينة السلطان (٣٩) والذي يؤخذ من تفاصيل القصة ان قاضياً حنفياً جوّز إصدار أمر سلطاني بإعادة البناء في سنة ٨١٩ للهجرة (١٤٧٤ للميلاد) . فكانت هذه أول كنيس استحدثت في القدس بموافقة سلطان المسلمين . وبعد تسع سنوات رأى الكنيس الحاخام عباديه ووصفها بانها مستطيلة لايدخلها النور إلا من بابها الوحيد . والغالب أن ذلك كان بأمر السلطان ، حتى لا يرى المسلمون ولا يسمعون صلاة اليهود بينما هم يصلون في الجامع الملاصق .

- ٨ -

ضمّت الدولة العثمانية سورية وفلسطين الى أملاكها في سنة ١٥١٦ بعدما انتصر السلطان سليم على جيش المماليك في صيف تلك السنة بقرب حلب . ثم زحف جيشه الى دمشق فساحل فلسطين متجها نحو مصر ، أمّا هو فعرّج على القدس مع ثلّةٍ من الفرسان ، فاستقبله العلماء والوجهاء وأوْلموا له في ساحة الحرم الشريف ، وجاءه شيوخ صفد ونابلس والخليل لإعلان طاعتهم . ثم لحق السلطان بجيشه ، واشتبك مع بقية المماليك بقرب القاهرة ، وبتغلبه عليهم أصبح سيد مصر . ولقي في القاهرة المتوكل على الله الخليفة العباسي ، فحذا السلطان

(٣٩) The Jewish Encyclopedia (London and New York, 1904 — 1916), vol. V I I , p. 133 column 2 (in an article on Ierusalem , by Peter Weirnik) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سليم حذو المماليك وقرّبه للاستفادة من مقامه الديني . وجاء الى القاهرة وفد من شريف مكة يُعلن للسلطان قبول حكمه خلفاً للمماليك . وهكذا ورث عنهم لقب « خادم الحرمين الشريفين » في مكة والمدينة . ولعلّه ورث عنهم أيضاً إرسال « الصُرّة » وهي هدية نقدية سنوية كان يرسلها السلاطين الى الاشراف والعلماء في مكة والمدينة والقدس : ولعل الدافع لإرسالها الى القدس ما كان بين السلطان سليم والعلماء الذين أوْلموا له في ساحة الحرم ، فعندما قُدّم له الطعام في صحائف مصنوعة من الخشب ، فسألهم سبب ذلك ، فقالوا « نحن قوم فقراء ! ».

أما لقب خادم الحرمين في القدس والخليل فقد أُطلق على السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم وخلفه ، بالإضافة الى لقب خادم الحرمين في مكة والمدينة ، وهذا واضح من نقش على الحجر فوق رأس المدخل الشرقي للقلعة في القدس ، فهذا النقش يصف السلطان سليمان هكذا :« خادم الحرمين والبقعة القدسية »[٤٠] واعمال السلطان سليمان في القدس عظيمة وكثيرة ، اهمها ترميم قبة الصخرة واعادة تبليط أرض مسجدها ، وتعمير جدران الحرم الشريف وأبوابه ، وانشاء عدد من السُبُل في ساحة الحرم وبقربها وفي أماكن أخرى من المدينة . ومن أشهرها السبيل الواقع امام المدرسة التنكزية عند باب السلسلة ، والسبيل الواقع عند بركة السلطان خارج باب

---

(٤٠) تاريخ القدس لعارف العارف (القدس ، ١٩٦١) ص ٣٠٥ . قرأ المؤلف « البقعة الاقدسية » ، ولعله غلط مطبعي او جهل من الناقش ، فكثير من النقوش الموجودة في القدس لفتها سقيمة وتكاد تكون عامية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الخليل وعلى طريق بيت لحم . ومن أعظم الأعمال تعمير أسوار اسوار المدينة وبناء جميع اجزائها العليا ، وقد استغرق ذلك خمس سنوات كما تدل عليه النقوش الموجودة عند باب الخليل وباب العمود وباب ستنا مريم وباب النبي داود . وانشأت السلطانة زوجة سليمان تكية اشتهرت باسم خَاصَكي سلطان ، ووقفت عليها أوقافاً مكنّت المتولين من إطعام الفقراء كل يوم من ذلك الوقت حتى يومنا هذا . وانشأ بايرام جاويش ، الذي اشرف على تعمير الاسوار وبنائها ، رباطاً عرف باسمه ، تحوّل بعد ذلك الى مدرسة سُميت الرصاصية ، وظلت هذه المدرسة عامرة حتى نهاية الحكم التركي .

ويظهر من نقش على بلاطة موجودة فوق برج من أبراج القلعة بقرب باب الخليل ان السلطان سليمان كان يعتبر خليفة ففي هذا النقش وردت هذه العبارة : « تملّك سرير الخلافة بالاستحقاق ، السلطان ابن السلطان سليمان » . وقد امتد حكمه اكثر من اربعين سنة بلغت في اثنائها الدولة العثمانية أوج مجدها وقوتها ، وامتدت املاكها من بغداد الى بودابست ، وسليمان هو الذي بدأ إعطاء ما عُرف اصطلاحاً عند المؤرخين بالامتيازات الأجنبية ، اي إعفاء بعض الأجانب من طائلة القانون العثماني ، بقصد تسهيل التجارة ، اثناء وجودهم في بلاد الدولة العثمانية . ويمكن اعتبار هذا الإعفاء امتداداً لنظام الملة . اي الاستقلال الداخلي الذي تمتعت به كل ملة من اهل الكتاب تحت الحكم الاسلامي ، فكان رئيس كل ملة أو طائفة مسؤولاً عن تأدية ما عليها من الجزية ، ثم حراً في ادارة شؤونها الدينية والمدنية . فأُعطِي مثل هذا الاستقلال الملي أو الطائفي للتجار الأجانب الذين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أقاموا في الموانى العثمانية في أماكن منعزلة تحت ادارة رئيس منهم وبحسب قوانين بلادهم الأصلية .

وسهّل تشجيع التجارة هـذا حركة الحجاج من النصارى والمسلمين ، فمنذ الحروب الصليبية وسفن مدينة البندقية وغيرها من الموانى الايطالية تنقل الى الشرق الأدنى البضائع والحجاج ، وكذلك كان التجار مع بضائعهم يُرافقون قوافل الحج الى مكة . وكان نصيب القدس من هذا غير قليل ، وخاصة بعد الحروب الصليبية ، في عهد سلاطين المماليك وسلاطين آل عثمان . وقد أمّن السلطان سليمان الطريق من يافا إلى القدس ، فرتّب لها الحرس وجعل مشايخ القرى الموجودة على الطريق مسؤولين عن سلامة الحجاج والتجار . وفتح السلطان سليمان ومن خَلَفه من سلاطين آل عثمان بلادَ دولتهم الواسعة لقبول اللاجئين من الاضطهاد في اوربا ، وقد استفاد من ذلك اليهود وخاصة بعد طردهم من اسبانيا بعد انقراض آخر دولة عربية فيها . واتجاه اللاجئين شرقاً الى البلاد الاسلامية لا غرباً الى البلاد النصرانية له دلالته في اشتهار النظام الاسلامي بالتسامح والانسانية .

ولم يشتهر مَنْ خلف سليمان من السلاطين شهرته في الحرب والسلم ، فاعتاد الكتاب تأريخ بدء تدهور الدولة العثمانية من نهاية سلطنته ، مع انها ظلت عزيزة قوية مدة طويلة بعد ذلك ، ولم يظهر ضعفها إلا بعد إخفاق حصار فيينا الثاني في سنة ١٦٨٣ أي بعد اكثر من قرن من نهاية سلطنة سليمان . لكن مَنْ خلفه من السلاطين لم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يُحْدثوا شيئاً يقرب مما أحدث هـــو في القدس . وسجلات المحكمة الشرعية ، التي تعكس تاريخ المدينة في جميع النواحي ، خالية من ذكر بناء معاهد جديدة ، وجُل ما تذكره هو عمارة بنائيْ المسجد الأقصى وقبة الصخرة وما حولهما في ساحة الحرم الشريف . لكن يوجد في هذه السجلات ما يستحق الانتباه ، وهو ان القاضي أحْصى عدد اليهود في المدينة وسجل أسماءهم عنده ، فبلغ عددهم مئة وخمسة عشر (الذكور دون الإناث ؟) . وكان ذلك في ١٩ جمادى الأولى سنة ٩٨٠ للهجرة (١٥٧٢ للميلاد) [٤١] وهذا في رأينا هـو أول بيان يمكن الاعتماد عليه ، بخلاف ما جاء في كتب الرحالة والرواة من المسلمين والنصارى واليهود ، فما قالوه كان مبنيّاً على الحدْس والتخمين ، أما سجل القاضي فمبني على إحصاء حقيقي .

ويعد نحو قرن أحصى جميع السكان متصرف المدينة حينئذٍ ، جاويش زاده محمد باشا . ولا يعرف الغرض من هذا الاحصاء ، ولا مقدار نصيبه من الدقة ، بخلاف إحصاء القاضي لعدد اليهود الذي ذكر أعلاه . وبلغ مجموع عدد السكان بحسب هذا الاحصاء ستة وأربعين ألفاً معظمهم من المسلمين ، ومن هؤلاء نحو ألف من أصحاب الوظائف في الحرم الشريف ، صرفت رواتبهم من مال « الصُرّة » السنوي . والذي ذكر ذلك هو الرحالة التركي أوْليا جلبي الذي زار القدس والخليل في سنة ١٠٨١ للهجرة (١٦٧١ للميلاد) في عهد محمد باشا المذكور ، فوصف معالم المدينتين وصفاً دقيقاً مطولاً وخاصة الحرمين الشريفين فيها .

---

(٤١) المحكمة الشرعية بالقدس : سجل ٥٥ صفحة ٢٠٧ ، راجع تاريخ القدس لعارف العارف ، ص ٣١٤

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعظم ما جاء في رحلة جلبي يطابق ما جاء في تاريخ مجير الدين الذي كتب قبل نحو قرنين . وهذان مثلان على ذلك : أولهما أن الأرض الواقعة بين باب الخليل ومنطقة البَقْعة كانت عند زيارة جلبي ملأى بالكروم والبساتين ، وكان أصحابها من الاشراف والعلماء والتجار وأهل الحرف يقضون شهور الصيف فيها ؛ وثانيها أن جميع المعاهد والمباني العامة التي ذكرها مجير الدين وجدها جلبي قائمة عاملة : أربعون مدرسة وعشر دور للقرآن وسبع دور للحديث وثمانية عشر سبيلاً وستة حمامات وستة خانات وسبعة أسواق طرقها مرصوفة بالحجارة وسقوفها معقودة بالقناطر . ولكن جلبي وجد حالة الأمن على الطرق سيئة ، فعندما أراد زيارة الخليل أرسل معه أمير اللواء عشرين خيالاً مسلحاً (٤٢) .

كل هذا الذي ذكره أوليا جلبي يدل على أن المدارس والزوايا والربط وما أشبهها من المعاهد والمباني العامة التي ورثها العثمانيون عن الأيوبيين والمماليك في مدينة القدس كانت عامرة عاملة حوالي نهاية

(٤٢) ملخّص عن « سياحتنامه سي » لأوليا جلبي كما جاء في تاريخ القدس لعارف العارف ، ص ٢٦٧ ـ ٢٦٩ . والتلخيص مأخوذ عن صورة فتوغرافية للأصل التركي المخطوط وُجدت في المتحف الفلسطيني بالقدس . والظاهر ان المتحف والمرحوم عارف العارف لم يعلما ان « سياحتنامه سي » بدأ طبعها في استانبول سنة ١٣١٤ عندما ظهرت منها الاجزاء الاربعة الاولى . ثم ظهر الجزء الخامس في سنة ١٣١٨ . ثم توقف النشر نحو ربع قرن واستؤنف في سنة ١٩٢٨ عندما ظهرت الاجزاء السادس والسابع والثامن . اما الجزء التاسع والأخير فنشر في سنة ١٩٣٥ . وهذا الجزء يحتوي على وصف الزيارة للقدس والخليل مفصلة على صفحاته ٤٦٠ ـ ٥١٦ ، وهو مطبوع بالحروف اللاتينية . اما الاجزاء الثمانية فكلها مطبوعة بالحروف العربية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

القرن الحادي عشر للهجرة (السابع عشر للميلاد) ، وان المعاهد والمباني العامة التي أضافها العثمانيون منذ عهد سليمان القانوني كانت قائمة يستفاد منها في الوجوه التي عينها المؤسسون أو الواقفون ، وإن الوقفيات التي شرعت منذ الحروب الصليبية حتى ذلك الوقت كانت متصلة الثبوت والتنفيذ بحسب أحكام الشريعة .

ولم يفصل ما أجمله أوليا جلبي أحدٌ بعده تفصيلاً يشبه ما جاء به مجير الدين قبله . فمن أراد مثلاً استقصاء تاريخ مدارس القدس التي عددها وذكر مؤسسيها وأوقافها لا يجد غير ما يمكن اقتطافه من كتب التراجم ، وهو ذكر عام لهذه المدرسة المشهورة أو تلك في ترجمة هذا العالم المشهور أو ذاك . لكن التراجم الخاصة بعلماء القدس تؤكد استمرار سُنّة الرحلة في طلب العلم ، فمعظمهم كانوا يذهبون إلى الأزهر في القاهرة أو الجامع الأموي في دمشق أو إلى مكة والمدينة ، وبعضهم ذهب إلى عاصمة السلطنة استانبول للتعليم في مدارسها ومساجدها ، وأحياناً للحصول على وظيفة القضاء أو الإفتاء أو التدريس في القدس .

والمصدران المهمان للتراجم هما « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » لمحمد المحبي ، وكتاب « سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر » لمحمد خليل المرادي . وما جاء في الكتاب الأول عن مدارس القدس أكثر مما جاء في الثاني . ومن أهم المدارس التي ذكرت في الكتابين : الصلاحية والأفضلية والتنكزية ودار القرآن ودار الحديث والمأمونية والفارسية ، والعثمانية ، والظافرية . ولم نعثر فيها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ذكر الأشرفية ، ولعل غيرنا يدلنا عليه إذا وجد .

وهذا ما يستفاد من كتاب المحبي : جاء في ترجمة جمال الدين ابن محمد العجمي القُدْسي أنه صحب الزَّيْن المرصفي في القاهرة ، فلما عاد إلى القدس لازم شيخ الصلاحية عفيف الدين ابن جماعة ، واختص بقراءة قصتَيْ المولد والمعراج في المسجد الأقصى ، ودرّس بدار الحديث ، وعمّر جزءاً من المدرسة الظافرية التي كانت متهدمة واتخذه مسكناً ، وتوفي سنة ١٠٠١ للهجرة . وجاء في ترجمة ابنه محمد أنه تعلم في القدس ، ثم سافر إلى استانبول ولازم شيخ الإسلام محمد ابن سعد الدين ، ثم تولى القضاء في مصر ، ثم صار مُفْتياً في القدس ومدرساً في العثمانية « فلم يمتزج مع أهلها (أي القدس) لطول غَيْبته عنهم » ، فصار قاضياً في طرابلس الشام ، وتوفي سنة ١٠٥٥ للهجرة . وجاء في ترجمة طه بن صالح نجم الدين الدَّيري المقدسي أنه كان معيداً لدرس تفسير القرآن في الصخرة المشرفة ثم درس في الفارسية وسكنها ، وولي كتابة الصكوك ونيابة الحكم في القدس ثم في مكة . توفي سنة ١٠٧١ للهجرة ودفن بمقبرة مأمن الله . وجاء في ترجمة محمد بن حافظ السروري المقدسي أنه رحل إلى القاهرة ودمشق وأخذ عن علمائها ، ثم عاد إلى القدس وانقطع للتدريس في التُنْكزية والمأمونية إلى أن توفي في سنة ١٠٨٩ للهجرة . وجاء في ترجمة مصطفى بن فخر الدين العلمي القدسي أنه أقام بالأزهر زماناً طويلاً ، ثم عاد إلى القدس وصار « كاتب الصكوك في محكمتها وولي النيابة كثيراً » . ومن آثاره وقفٌ على المؤذنين

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بالمسجد الاقصى وقنديل عُلّق على الصخرة المشرفة كان يُشعل ليلاً ونهاراً ، ه وله خيرات على خدام الحرم الخليلي » توفي سنة ١٠٧١ للهجرة [٤٣] .

وفيما يلي بعض ما يستفاد من كتاب المرادي الذي هو أقل تفصيلاً ودقة من كتاب المحبي ، ويشوب تراجمه كثرة الاوصاف العامة التي قد تنطبق على معظم من ترجم لهم . ومن أهم هؤلاء أحمد الموقّت الذي اختص كما يدل اسمه بالميقات في المسجد الاقصى . وهو من ذرية أبي العزم أحد أولياء المغاربة : « قرأ العلوم في بيت المقدس ، ولم يذق كربة الغُرْبة أوان تحصيله ... وانتهت إليه حقائق العلوم العقلية ، وأُلقت إليه مقاليدها العلوم النقلية » . كان مدرساً بالأفضلية والمسجد الاقصى وإماماً في الصخرة المشرفة . وتعاطى التجارة فاستَغْنى بذلك عن « التمتُّعات » ، وشمل بكرمه زوار القدس من الغرباء وخاصة العلماء . توفي سنة ١١٧١ للهجرة ودفن بمقبرة مأمن الله . وجاء في ترجمة صنع الله الديري الخالدي أن عائلته أصلها من قرية الدير من قرى نابلس ، وأنه تولّى رئاسة الكتابة في محكمة القدس ، ووقف وقفاً فيها عَيْن رَيْعه لإطعام الفقراء ، وأصلح سبيل ماء (لا يذكر المؤلف اسمه) . توفي سنة ١١٣٩ ودفن عند باب الرحمة . وجاء في ترجمة السيد عبد الرحيم أبي اللطف القدسي أنه تعلّم في القدس ثم جاور في الازهر وسافر إلى استانبول ودرس بجامع السليمانية .

---

(٤٣) كتاب خلاصة الأثر (القاهرة ، ١٢٨٤) ج١ ص ٤٨٩ (جمال الدين) ، ج ٣ ص ٤١٢ (محمد بن جمال الدين) ، ج ٢ ص ٢٦٠ (طه)، ج ٣ ص ٤١٤ (محمد بن حافظ) ج ٤ ص ٣٨٥ (مصطفى العلمي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم أعطي إفتاء بلدته مع المدرسة العثمانية ورئاسة علماء القدس . وعُيّن قاضياً لصفد « على وجه المعيشة » . توفي سنة ١١٠٤ للهجرة في أدرنة (٤٤) . وترجم له الجبرتي تحت اسم « الشيخ عبد الرحيم بن أبي اللطف الحسيني المقدسي » (٤٥) .

يتضح من هذه التراجم وغيرها أنه غلب على علماء القدس التدريس في المسجد الأقصى والصخرة المشرفة ، وكان الواحد منهم يجمع أحياناً مع التدريس وظيفة أخرى في القضاء أو الإفتاء أو الإمامة أو الخطابة . ولكن بعضهم أعرض عن هذه الوظائف ، ومال الى الزهد والتصوف فقد عُرف عن احدهم أنه كان يلازم مغارة الصخرة المشرفة ولا سيما وقت السحر ، وعُرف عن آخر انه اختصّ بجباية ريع أوقاف الحرم الشريف التي كانت بمصر (ماذا جرى لها ؟) ، وعرف عن ثالث انه كان مولعاً بنظم الشعر والفكاهة . وكَرَمُ أحمد الموقّت ذُكر اعلاه ، ويشبهه في ذلك نقيب علماء القدس وشيخ الحرم الشريف السيد عبد اللطيف بن عبد الله القدسي الذي توفي في سنة ١١٨٨ للهجرة وكان يهتم بزوار المدينة وحجاجها ويعطيهم من ماله .

هذه صورة منيرة قد يرى المدقق على حواشيها ظلمة تدل الشواهد والقرائن أنها أخذت تزداد شيئاً فشيئاً . فما دلالة وجود مدرسة متهدمة لا يهتم متولي وقفها بترميمها وإعادة التدريس فيها ؟ وما عِبْرة

---

(٤٤) كتاب سلك الدرر (بولاق ، ١٣٠١) ، ج ١ ص ١٧٥ ، ج ٢ ص ٢١٣ ، ج٣ ص ١ ــ ٥ .

(٤٥) كتاب عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي (بولاق ، ١٢٩٧) ج ١ ص ٦٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ما حدث للسيد عبد الرحيم أبي اللطف القدسي الذي ذكر أعلاه عندما ذهب الى استانبول وحصل من شيخ الاسلام على وظيفتي الإفتاء والتدريس في القدس ، ثم عزل عنها ، ثم أعيد إليها ؟ وما معنى إعطائه قضاء صفد « لأجل المعيشة » أي لكي يعين هو نائباً عنه يعطيه ما يتفقان عليه من دخل المحكمة ؟ وماذا يستنتج من ذهاب عدد من علماء القدس للتدريس في مدارس استانبول وبروسة وقونية وأدرنة وتولي القضاء في أماكن بعيدة مثل صوفية وبوسنة Bosna؟

أصل البلاء أن كل الوظائف الادارية والقضائية والعلمية كانت تباع وتشترى في عاصمة السلطنة ، فالوالي أو القاضي كان يدفع ثمن وظيفته سلفاً لمن يسلمها له ، وهو بدوره يبتز أموال الناس لاسترداد ما أنفق ولإغناء نفسه . وهذا أفقر الشعب من الزراع والتجار وأرباب الحرف ، وزاد الحالة سوءاً اختلال الامن العام ، وصعوبة المواصلات ، وتعرض القوافل التجارية حتى وقوافل الحجاج للنهب ، واغتنام بعض الزعماء فرصة ضعف الدولة بالثورة عليها . وقد ظهر هذا الضعف واضحاً أثناء القرن الثامن عشر بانكسارها في ست حروب اضطرت إلى دخولها مع روسيا والنمسا .

وكان من نتائج هذه الحروب أن تقلّصت حدود الدولة العثمانية في أوروبا ، وأُرغمت على اعطاء امتيازات جديدة لروسيا ، بعد أن كان اعطاء الامتيازات منّة لفرنسا في زمن سليمان القانوني ، ولبريطانيا في زمن مراد الثالث . وأخذت الدول الاوروبية تستغلّ هذه الامتيازات استغلال القادر للعاجز ، فغلب ضررها على ما أُريد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

بها أصلاً من تسهيل التجارة ، فصار التاجر الأوروبي أحسن حالاً من التاجر العثماني ، لما كان للأول من حق الإعفاء من طائلة القانون العثماني ، ودفع تعريفة على بضائعه أقل بكثير مما يدفع التاجر العثماني .

وقد أصاب القدس من هذا الاضطراب والضعف ضرر كبير ، فكثرت هجرة العلماء منها إلى مراكز التعليم ومجال التوظُّف في استانبول وغيرها من المدن التركية ، وأدى تغير الولاة والقضاة السريع إلى اهمال مراقبة الاوقاف والعناية بالمباني العامة ، فأخذ بعض متولي الاوقاف يحولونها لمنفعة أنفسهم . وعانت القدس من الفقر وسوء الادارة وظلم الحكام ما عانته باقي المدن . لكن السلاطين لم ينسوا في محنتهم القدس ولا مكة ولا المدينة ، فثابروا على إرسال « الصُرَّة » إلى كل منها واهتموا بترميم المساجد في حرم كل منها .

- ٩ -

يؤرخ بعض كتاب الغرب ، ويقلدهم في ذلك بعض كتاب العرب ، بدء النهضة العربية الحديثة من الحملة الفرنسية على مصر في سنة ١٧٩٨ وامتدادها في السنة التالية إلى سواحل فلسطين حتى مدينة عكا ، بل يرجع هؤلاء فضل نشوء تلك النهضة إلى هذه الحملة . وهذا وهم لا يثبت بعد النظر الدقيق ، فالحملة أعاقت نهضة أدبية علمية كانت بمصر قبلها ، وضرر الحملة واضح فيما أصاب علماء الازهر من القتل والتشريد الذي أدى الى إغلاق المعهد لاول مرة في تاريخه . أما احتلال سواحل فلسطين فلم يدم أكثر من أربعة أشهر انتهى باخفاق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نابليون أمام أسوار عكا ، ولم يترك وراءه إلا الدمار وشر الطائفية التي أثارتها الدعاية الفرنسية .

ولم يحاول نابليون أخذ القدس ، ولكن التاريخ يذكر اثنين من علمائها تعلما في الازهر ، قاومه أحدهما بعلمه ، وهجاه الآخر بشعره . أما الاول فهو السيد موسى الخالدي ، قاضي عسكر الاناضول ، فهو الذي كتب المنشور الذي اذاعته الحكومة العثمانية في جنوب سورية ، لإثارة الشعب ضد الفرنسيين . ولا يُعرف عن هذا الرجل العظيم أكثر من ذلك سوى أنه توفي سنة ١٢٤٧ للهجرة في انطاكية وأما العالم الثاني فهو الشيخ محمد بن بدير ، ذكره الجبرتي فقال « هو الآن فريد عصره في الديار القدسية ، يبدي ويعيد ، ويدرس ويفيد »[٤٦] . توفي سنة ١٢٢٠ للهجرة . وقصيدته تقع في ١٥٧ بيتاً اكتشفها بين أوراق آل البديري في القدس أحد أبنائها النابهين[٤٧] . وهي تهجو الفرنسيين وقائدهم وتمدح والي عكا أحمد باشا الجزار .

والتراجم الاخرى الواردة في تاريخ الجبرتي تكاد تكون مقصورة على مشاهير مصر ، وبينها عدد قليل من علماء القدس الذين تعلموا في مصر . ومن هؤلاء الشيخ محمد بن سيرين المقدسي . جاء في ترجمته أنه ذهب الى مصر مع والده وتعلم على شيوخ ذكرهم المؤلف ، كان أعظمهم أثراً على ابن سيرين الشيخ محمود الكردي ،

---

(٤٦) عجائب الآثار ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٤٧) هو الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني . ذكر القصيدة في كلمة نشرت في كتاب قدّمه بعض الزملاء لعبد اللطيف الطيباوي بعنوان :

Arabic and Islamic Garland (London, 1977), p. 120

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فهو الذي ألبَس تلميذه « التاج » وجعله من خلفاء السادة الخَلوَتيّة ، ثم أمره بالعودة الى القدس لنشر الطريقة فيها ، « فسكن الحرم وصار يذاكر الطلبة بالعلوم ، ويعقد حلقة الذكر »[٤٨] وهذه القصة تشبه قصة عالم آخر من أهل القدس ذكره الجبرتي ، والقصتان تدلان على ازدياد الاهتمام بالطرق الصوفية . فهل قلّ ذلك من شأن التدريس في المدارس ؟ سبب هذا السؤال هو عدم ذكر مدارس القدس المشهورة وغير المشهورة ، الكبيرة كالصلاحية أو ذات المدرّس الواحد ، في نهاية القرن الثاني عشر وابتداء القرن الثالث عشر . وهذا السكوت بدأ بالجبرتي واستمر حتى يومنا هـــذا . وليت مَنْ تمكنه ظروفه من علماء العرب يراجع سجلات المحكمة الشرعية بالقدس للوقوف على مصير مدارسها وسبب اهمال التدريس فيها وكذلك مصير أوقافها .

ولا يمكن الاعتماد على كتب الرّحالة الأوربيين في هـذا الأمر أو مـــا يُشبهه ، فمعظمهم كانوا يكرهون الاسلام ولم يَرَوا الا المساوىء في النظام العثماني . خُذ مثلاً على ذلـك الكونت فُولْني الفرنسي الذي زار القدس قبل حملة نابليون بنحو خمس عشرة سنة ، فلا ذكر في كتاب رحلته للحرم الشريف حتى ولا لكنيسة القيامة ، فلا غرابة بعـد ذلك إن هو أهمـل ايضاً ما كان دونها في الاهمية كالمدارس . لا يُعرف على أي اساس بنى هذا الرّحالة تقديره لسكان المدينة بنحو اثني عشر أو اربعة (كذا) عشر الفاً ، ولكن هـذا التقدير لا يمكن قبوله ، كما لا يمكن قبول الغلط والمبالغة في وصف

(٤٨) : عجائب الآثار ج ٣ ، ص ٣٥٦ وما يليها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدينة الذي أجمله بسطرين هكذا : « أسوارها مهدمة ، والخنادق حولها مملوءة ، وكل (كذا) ابنيتها خربة »[٤٩] فكل مؤرخ يُعتد به يعرف ان الأسوار لم تتهدم منذ عهد سليمان القانوني حتى يومنا هذا ، وكان قارىء ينتبه للتفاصيل يعرف انه لا يمكن ان تكون كل الأبنية ، في مدينة مسكونة ، خربة .

فاذن لاتبرر قلة المصادر العربية الاعتماد على أمثال هذا الرَّحالة . ويسر الباحثين ان يعلموا انه منذ نحو ثلاثين سنة اكتشف استاذ مقدسي كتاباً مخطوطاً عن أعيان القرن الثاني عشر ألَّفه على نمط كتاب المرادي ، أحد سراة القدس وهو حسن بن عبد اللطيف الحسيني . وقد نشر الاستاذ المذكور رسالة في اربعين صفحة ، اعتمد في بعضها على هذا الكتاب المخطوط الذي لا يُعرف مصيره الآن . وفي المخطوط ذكر لاثنين من مدرّسي المدرسة الصلاحية من أهل القدس ومن خريجي الأزهر ، وهما السيد علي بن محمد جار الله الذي توفي سنة ١١٦٩ للهجرة (١٧٥٥ م) ، والسيد محمد بن علي جار الله (؟ ابن السابق) الذي تولىَّ افتاء القدس ورئاسة العلماء فيها في سنة ١١٨١ للهجرة (١٧٧٨ للميلاد) . دعي الى استانبول وقابل السلطان ورافق الصدر الاعظم الى ساحة الحرب مع روسيا ، ولكن مخطوط الحسيني لا يذكر تاريخ وفاته .

---

(٤٩) Constantine-Francois Comte de Volney, Voyage en Egypte et en Syrie 1873 - 5 : English translation, (London, 1787), vol . II , p . 303 – 304

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

واستَدْعى شيخُ الاسلام ، عبد الله افندي دري زاده ، عالماً آخر من علماء القدس الى استانبول ، وهو الشيخ علي ابو السعود مفتي الشافعية . وكان طاعناً في السن فتوفي في العاصمة بعيد وصوله اليها سنة ١٢٢٨ للهجرة (١٨١٣)[٥٠] وكان وجود أبي السعود في العاصمة مع ابن بلدته موسى الخالدي من العوامل التي جعلت السلطان محمود الثاني يرسل بعثة برئاسة أحد وزرائه الى القدس للنظر فيما احتاجه المسجد الاقصى ومسجد قبة الصخرة من الترميم . ولكن لا يعرف اذا كان من وظيفة البعثة النظر ايضاً في ترميم المباني العامة كالمدارس والزوايا والربط وغيرها .

والسلطان محمود هو ثاني سلاطين آل عثمان المجدّدين ، سبقه في ذلك سليم الثالث ، منشىء ما عُرف بالنظام الجديد . فالتجديد أو التنظيم أو الاصلاح أو النهضة بدأ في اعظم دولة اسلامية قبل الحملة الفرنسية على مصر ، لابل قبل الثورة الفرنسية . وكان من أهم بواعث التجديد شعور بالنقص في ميدان الحرب امام الجيوش الأوروبية ، ولهذا بدأ بإنشاء مكاتب (ولم يسموها مدارس) لتدريب ضباط الجيش والاسطول ، وجيء لهذه المكاتب بمعلمين من اوروبا وخاصة من فرنسا . وأسكِتَتْ معارضة العلماء لهذه البدعة ، فجُعلت

---

(٥٠) أهل العلم بين مصر وفلسطين . لأحمد سامح الخالدي (القدس ، ١٩٤٦) ، ص ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ . تفصيل قصة استدعاء ابي السعود وردت في تاريخ أحمد جودت باشا بالتركية تحت سنة١٢٢٨هـ (الجزء العاشر صفحة ١١١ من الطبعة الثانية في استانبول سنة ١٣٠٩) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المكاتب الجديدة منفصلة كل الانفصال عن المدارس الاسلامية الأصلية ، التي ظل منهجها على حاله . أما المكاتب الجديـــدة فاختصت بتعليم العلوم الرياضية والطبيعية واللغة الفرنسية . وظلت هذه المكاتب لمدة طويلة منحصرة في العاصمة ، ولم يؤسس مايشبهها من المكاتب الجديدة في الولايات العربية إلا في النصف الثاني من القرن التـــاسع عشر ، وعليه لايصح ارجاع سبب تأخـر المدارس الاسلامية في القدس إلى منافسة مكاتب النظام الجديد . لكن قد يكون من أسبابه إخضاع إدارة الأوقاف المحلية لوزارة الأوقاف الجديدة التي انشأها محمود الثاني في استانبول ، فأضعف ذلك استقلال القضاة وخفف رقابتهـــم على الأوقاف المحلية ومحاسبة متوليها ، فأخذ هؤلاء يحتالون لتحويل منافع الأوقاف لأنفسهم .

وكانت القدس حتى نهـــاية القرن الثامن عشر مدينة مغلقـــة للفرنج ، فلم يُقمْ فيها منهم الا بعض الرهبان ، ولم يزرها الا الحجاج وبعض المخاطرين من المسافرين ، ولم تكن فيها قنصلية واحـدة أو جالية تجارية أوروبية . وأخذ ذلك يتغير اثناء القرن التاسع عشر ، وكان من أسبابه بدء التنافس بين الدول الأوروبية العظمى في القدس ونشاط بعض الجمعيات التبشيرية الانكليزية والأمريكية ، وتحسن حالة الأمن العام ابتداء من الاحتـلال المصري ، ونمـو المصالح الأجنبية دينية كانت أو تجارية . ولعلّ أول رمز للتغيُّر هو دخول أمـــير البحر سير سِدْني سْمِيثْ الى القدس بموكب عسكري بعد نجـاح دفاعه عن عكا من البحر ، فانكلترا حالفت تركيا ضد فرنسا بعد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هجوم نابليون على مصر وفلسطين . جاء في تقرير السفير البريطاني في استانبول ان سنمث ركب من يافا مع حرس من البحّارة البريطانيين ومئة من الفرسان العثمانيين ، ووصل في المساء الى مشارفها فنام ليلته في دير في عين كارم ، وفي صباح اليوم التالي دخل القدس في نظام عسكري وزار كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة .(٥١)

وهكذا فُتح الباب . فبعد نحو عشرين سنة أرسلت جمعية تنصير اليهود في لندن مبشّرَيْن للاقامة في القدس ، وفي الوقت نفسه تقريباً ارسلت الجمعية التبشيرية الامريكية في بوسطن مبشّريْن آخرين اليها . وكان هدف الجمعية الاولى مقصوراً على تنصير اليهود ، اما الثانية فأرادت إرْشاد أهل جميع الاديان ، وظلّ هؤلاء الطلائع يتخبّطون مدة طويلة دون الوصول الى نتائج محسوسة . وفي أواخر سنة ١٨٣١ احتل محمد علي باشا والي مصر فلسطين في ثورته على السلطان محمود ، وكان من اهم نتائج ذلك في القدس تأسيس « مجلس شورى » دخله ممثلون عن النصارى واليهود لأول مرة . وأراد محمد علي اكتساب عطف الدول الاوروبية فأمّن طريق الحجاج الى القدس ، وفتح البلاد لمسافريهم وتجارهم . فاغتنمت الحكومة البريطانية الفرصة وأسّست في القدس أول قنصلية ، بعد الحصول على موافقة السلطان صاحب السيادة الشرعي وموافقة محمد علي الحاكم الفعلي . وضغط

---

(٥١) تقرير السفير البريطاني المؤرخ في ١١ كانون الثاني سنة ١٨٠٠ محفوظ في دار الوثائق العامة في لندن FO (Turkey) 78/28

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المبشرون على وزير الخارجية فجعل من وظائف القنصل البريطاني في القدس « حماية اليهود »[٥٢] .

لم يَزْدد عدد اليهود عن بضع مئات منذ عهد صلاح الدين إلا قليلاً . لكن إخراج العرب و(اليهود) من اسبانيا سبّب زيادة مهمة في ذلك العدد . فبعد ان التجأ اليهود الى البلاد العربية في شمال افريقيا وصل بعضهم مع الزمن الى القدس وعرفوا بطائفة سْفَارْديم (نسبة الى اسم اسبانيا بلغتهم) . وكان معظمهم يتكلمون اللغة العربية ولهم اسماء عربية ، فلم يجدوا صعوبة في الانسجام مع المحيط العربي والاشتغال بالتجارة والصناعة ، واكتساب ثقة الحكومة العثمانية . وهكذا اصبح افراد هذه الطائفة من الرعايا العثمانيين فاعترفت بهم الحكومة وأصبحوا « ملة » اليهود رسمياً ، وعيّنت من طائفتهم رئيس الحاخامين (حاخام باشي) .

اما طائفة اشْكِنَازِيم (نسبة الى اسم اشْكناز الوارد في العهد القديم والذي اطلقه أحبار القرون الوسطى على المانيا لسبب غير واضح) فقد جاءت بعد الطائفة السابقة من بولونيا عندما كانت هذه البلاد مقسمة بين روسيا والنمسا وبروسيا ، وعليه كان هؤلاء اليهود يتكلمون ، بالاضافة الى العبرية والروسية ، لهجة المانية عرفت

---

(٥٢) فصّلنا ذلك اعتمادا على الوثائق البريطانية في كتابنا :
British Intereste in Palestine, 1800 — 1901 (Oxford, 1961), pp. 29 — 37

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

باليدش . واحتفظ هؤلاء بجنسياتهم الروسية والنمساوية والبروسية ، لكي يستفيدوا من الامتيازات الاجنبية ، ولم يمتزجوا مع المحيط العربي ولا مع طائفة السفارديم ، بل كان بين الطائفتين خصام شديد . وكان الاشكنازيم من الغلاة المتعصبين ، كرسوا حياتهم للعبادة ودرس التلمود وتعليمه ، ولم يشتغلوا لكسب الرزق ، بل عاشوا معيشة فقر شديد ، في اماكن غير صحية شديدة الاكتظاظ ، واعتمدوا على إحسان ابناء جلدتهم في اوروبا الذي عُرف اصطلاحاً بالخالوكاه . ومع هذا كان الصرّافون والمرابون في القدس من هذه الطائفة .

هذه حالة اليهود عندما تأسست فيها القنصلية البريطانية وجعلت إحدى وظائفها « حماية اليهود » . فاسرعت ووضعت عدداً من طائفة الاشكنازيم تحت حمايتها ، فتشجعوا وقدم أحدهم طلباً بواسطة القنصلية لشراء قطعة ارض بقرب القدس عندما كان القانون يُحرم ذلك على الأجانب ، فرفض الطلب . وقدم آخر ايضاً بواسطة القنصلية طلباً ليسمح له بتبليط « مبكى اليهود » على نفقته . وكان هذا المبكى زقاقاً غير نافذ امام حائط البراق (جزء من الحائط الغربي للحرم الشريف) ، وعلى أرضه كان اليهود يقفون للصلاة امام الحائط فنظر مجلس الشورى في الطلب وأوصى برفضه ، فأصدر محمد علي امراً بالسماح لليهود بزيارة المكان « على الوجه القديم » لكن منعهم من تبليطه « لأنه وجد انه غير جائز شرعاً ... فهو ملاصق الى حائط الحرم الشريف ومحل ربط البراق وداخل في وقفية ابي مَدْيَن ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وما سبق لليهود تعميره . »[٥٣]

وكان ذلك قبل انتهاء الحكم المصري ببضعة أشهر ، وكان انتهاء ذلك الحكم بتدخل الدول الأوروبية . ويرجع السبب الرئيسي في نجاح ثورة محمد علي الى التدريب العسكري الحديث الذي أدخله في جيشه عن طريق المكاتب الحربية واستخدام المدرّبين الأوروبيين ، فسبق في هذا الباب السلطان محمود . فلما توفي هذا في سنة ١٨٣٩ خلفه ابنه عبد المجيد وكان حدثاً في سن السادسة عشرة ، فرأى الوزراء إصدار مرسوم سلطاني (خطي شريف) ، أُعلن من غُرُفخانه في استانبول ، واعتبره المؤرخون تدشيناً للاصلاحات التي عرفت بالتنظيمات . وأهم ما في المرسوم إقرار مبدأ المساواة بين الرعايا العثمانيين من مختلف الاديان ، واصلاح نظام جباية الضرائب ، ومنع معاقبة المتهم قبل إدانته في محكمة ، ومنع قبول الرشوة . وقد وجدت طبقة العلماء في مبدأ المساواة ما يخالف العُرْف ان لم يخالف الشريعة ، ووجد بعض النصارى واليهود من جهة ، والدول ذات الامتيازات من جهة اخرى ، فرصة يمكن استغلالها . وقد كان أثر المرسوم في القدس سيئاً ، فالقاضي الشرعي الذي كان حتى الاحتلال المصري بمثابة حاكم المدينة ، لم يكن فيها ما لم يكن ضمن وظيفته أو تحت رقابته ، رأى ان وظائفه سينْتَقص منها أو تحول

---

(٥٣) صدر الامر الى السيد احمد آغا الدزدار متسلم القدس وتاريخه ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢٥٦ (٢٨ أيار ١٨٤٠) . راجع مجموعة اسد رستم : الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا (بيروت ١٩٣٤) ، ج ٥ ص ٧٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الى غيره ، والعلماء والاعيان الذين كان لهم النفوذ في مجلس الوالي او المتسلم أو المتصرف وجدوا انه سيشاركهم في ذلك نفر من غير المسلمين .

وازداد تنافس الدول ذات الامتيازات في القدس بعد انتهاء الاحتلال المصري ، فادعت روسيا حماية طائفة الروم الارثوذكس في المدينة بل في سائر انحاء السلطنة العثمانية ، وادعت فرنسا حماية طائفة الكاثوليك في المدينة وفي سائر البلاد العثمانية . اما بريطانيا فلم تدّع ظاهرا حماية طائفة معينة ، ولكنها فعلاً اهتمت بحماية مصالح اليهود ، ودافعت عن الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتي من الارثوذكس او الكاثوليك او اليهود في القدس وفي جميع انحاء السلطنة العثمانية . وازداد نفوذها في استانبول زيادة مطردة ، فاغتنم المبشرون وانصارهم هذه الفرصة ، وأصرّوا على ضرورة انشاء كنيسة جديدة في القدس لطائفة البروتستانت التي كانت في دور التكوين ، وضرورة ارسال أُسقف (مطران) لهذه الطائفة يقيم في تلك المدينة . وأُكْرِهَ السلطان فوافق على إقامة الكنيسة في دار القنصلية (لكنها بنيت فعلاً خارجها في مكان بارز أمام القلعة) . وأرسلت الحكومة البريطانية يهودياً متنصّراً اخْتِير ليكون مطراناً ، ومعه القنصل البريطاني العام في بيروت ، على بارجة حربية الى يافا ، ومنها ركبا معاً حتى دخلا القدس في كانون الثاني سنة ١٨٤٢ ، دون موافقة الحكومة العثمانية ، بل رغماً عن احتجاجها .

ولم تكن الدول الأخرى ، وخاصة فرنسا وروسيا ، أقل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اجتهاداً من بريطانيا في إظهار نفوذها في القدس . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أسّست كل من فرنسا وروسيا قنصلية في القدس ، وسبقت الهيئات الفرنسية والروسية نظائرها الانكليزية بكثرة ما انشأت في المدينة من المنازل للحجاج ، والأديرة للرهبان والراهبات ، والمدارس والمستشفيات للنصارى العرب . وبلغ تنافس فرنسا مع روسيا أشده في دفاع الأولى عن حقوق الكاثوليك ، والثانية عن حقوق الارثوذكس في الأماكن المقدسة في القدس وبيت لحم . وكانت الحكومة العثمانية تتأرجح في ميلها نحو هؤلاء أو هؤلاء بحسب تغيّر علاقاتها مع كل من الدولتين . وفي سنة ١٨٠٨ دمرت النار معظم كنيسة القيامة ، وسمح السلطان للارثوذكس بتعميرها ، فأهملوا في ذلك بعض المعالم التي تركها الصليبيون في البناء ، فاغضب ذلك فرنسا ، وارادت الدولة العثمانية إرضاءها ، بل ارضاء روسيا أيضاً ، لكنها عجزت .

وتطرّفت روسيا عندما حاولت بالتهديد الحصول على حق حماية الارثوذكس ومصالحهم في القدس وسائر أنحاء السلطنة العثمانية ، فلما رفضت تركيا ذلك بتشجيع بريطانيا ، بدأت روسيا الحرب التي تُسمى في التاريخ « حرب القرم » التي بدأت حقيقة كما قال مورخها ، في القدس بدل في كنيسة القيامة وحول القبر المقدس . وبعد اعلان الحرب خيفَ من هجوم الغوغاء في القدس على الطائفة الارثوذكسية التي بسببها دخلت روسيا الحرب ، فأرسل السلطان أمراً ، قرأه المتصرف على الوجهاء من جميع الطوائف ونشره في المدينة ، يطلب من المسلمين الهدوء ويطمئن جميع النصارى . وقد خسرت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

روسيا الحرب لأن كلاً من بريطانيا وفرنسا دخلتها في جانب تركيا . وقبيل انعقاد مؤتمر السلام في باريس في سنة ١٨٥٦ أُعلن في استانبول أمر سلطاني « خطي همايون » أعاد تأكيد مبدأ المساواة بين جميع الرعايا العثمانيين وغير ذلك من الضمانات التي وردت في الأمر السلطاني السابق « خطي شريف » . وقد أُعلن الأمر الجديد في القدس ، وكان الذي أعلنه المتصرف كامل باشا الذي أصبح فيما بعد الصدر الأعظم . وبُلّغ الأمر الى الدول في باريس فرحّبت به ووعدت بعدم التعرض للشؤون الداخلية في الدولة العثمانية بحجة حماية هذه الطائفة الدينية او تلك .(٥٤)

- ١٠ -

يمكن اعتبار إصدار الخط الهمايوني في سنة ١٨٥٦ حلاً فاصلاً بين عهد قديم وعهد جديد في تاريخ القدس ، اذ بعده امتدت المدينة من داخل الاسوار الى خارجها ، وكثرت فيها مصالح الأجانب وكثر المقيمون فيها منهم ، وحدث ما يشبه الانقلاب في نطاقها القضائي والاداري والتعليمي ، تطبيقاً لمرسومي التنظيمات . اما اتساع المدينة فبدأه أهلها عندما أخذ اغنياء المسلمين يبنون بيوتاً جديدة الى الغرب من باب الخليل باتجاه مأمن الله ، والى الشمال من باب

(٥٤) فصّلنا جميع المسائل المجملة في الفقرات السابقة في كتابنا :

A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine (London, 1969), pp. 101 — 103, 106 — 109, 117 — 119

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

العامود باتجاه الشيخ جراح . وكذلك اخذ اغنياء النصارى يبنون بيوتاً جديدة الى الجنوب والى الغرب من أسوار المدينة على أملاك دير الروم ودير الأرمن . واشتركت الأديرة في ذلك : فدير الروم كان له مصيف في القَطَمُون الى الغرب من البَقْعة التي كان يصيّف فيها الناس منذ عهد المماليك ، ودير الأرمن بنى أبنية جديدة على أملاكه الواقعة على يسار الطريق الى يافا .

لعل أقدم بناء أقامه الأجانب خارج السور وبقربه هو بناء المدرسة التي انشأها غوبات ، المطران الثاني لطائفة البروتستانت بقرب باب النبي داود . وبعدها اقيمت أبنية عديدة على قطع من الأرض أهدى بعضها السلطان لكل من بريطانيا وفرنسا وروسيا بعد مؤتمر الصلح في باريس : أهدى قطعتين الى الجنوب من باب الخليل بقرب بركة السلطان وعلى الطريق الى بيت لحم فبنى اليهودي البريطاني سيرمُوزِسْ نُتَيفْيُوري على قطعة منها صفاً من البيوت البسيطة لفقراء اليهود ، وبنت فيما بعد جمعية القديس يوحنا البريطانية على القطعة الأخرى مستشفى العيون المشهور .

وأقام الروس مجموعة من الأبنية عرفت بالمسكوبية على قطعة واسعة من الأرض واقعة على يمين الطريق الى يافا ، بعضها هدية من السلطان الى قيصر روسيا . فأقام الروس عليها بيوتاً لحجاجهم وبيوتاً أخرى للقنصلية والاسقفية مع مستشفى وكنيسة . وأقام الفرنسيون بقرب المسكوبية منزلاً لحجاجهم عرف باسم نُوتَرْدَامْ ومستشفى عرف باسم القديس يوسف . ولكن هدية السلطان عبد المجيد

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

للامبراطور نابليون الثالث كانت أهم من كل ما ذكر أعلاه . جاء فيما سبق من البحث ان العزيز الفاطمي انشأ « دار العلم » في كنيسة سانت حنة التي قامت بحسب بعض الروايات فوق المكان الذي ولدت فيه مريم العذراء (خلافاً لروايات اخرى انها وُلدت في الناصرة) . وهذا المكان هو قَبْو منحوت في الصخر قامت فوقه كنيسة بسيطة جاء ذكرها لاول مرة في القرن السادس للميلاد . وهي في الغالب المكان الذي فتح فيه العزيز دار العلم . فلما جاء الصليبيون أزالوا الكنيسة البسيطة وبنوا مكانها أخرى مع دير للراهبات سمّوه سانت حنة (ام مريم العذراء) ، وآل البناء الى صلاح الدين بعد جلاء الصليبيين ، فانشأ في الدير مدرسته ، وظلّ القَبْو مفتوحاً لرهبان الفرنسسكان في القدس ولحجاج النصارى من أوربا ولمن كان من طائفة اللاتين في المدينة . ولا يعرف متى بَطَل استعمال البناء مدرسةً او لماذا بطلت عادة زيارة القبو . فالمشهور أن المكان كان مهملاً عندما أهداه السلطان الى الامبراطور ، فسلّمه هذا الى الآباء البيض فعمّروه وأعادوه الى ما كان عليه أيام الصليبيين ،(٥٥) وأضافوا اليه بناءاً جديداً لمدرسة لاهوتية وداراً لسكنهم .

هذه لمحة عن بعض ما أقامه الانكليز والروس والفرنسيس من المباني العامة في القدس ، ولم نذكر بعض ما أقامه غيرهم لا لعدم أهميته بل لان غرضنا هو المثل لا الإحاطة . لكن يمكن القول

(٥٥) Father B. Meistermann, Guide to the Holy Land (2nd ed. London, 1923), p. 125 — 26

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

إجمالاً ان « الهجوم » الاجنبي على القدس اشتركت فيه أمم أخرى من أهل الغرب ، فأرسلت من اوربا وامريكا بعثات تبشيرية وخيرية لمنفعة النصارى واليهود ، وارسلت أيضاً بعثات علمية وأثرية لدرس تاريخ المدينة المقدسة . فدخل اليها بعد نشوء تلك المصالح كثير من الاجانب الذين استغلوا الامتيازات التي كانت لدولهم ، فوضعوا أنفسهم في مرتبة فوق مرتبة سكان المدينة ، فكان القنصل الاجنبي اذا اختار نصرانياً أو يهودياً من سكانه للعمل في مكتبه صار هذا النصراني او اليهودي ، العثماني الجنسية ، كالاجانب له ما لهم من الامتيازات وخرج من طائلة القانون العثماني .

نعم جلب وجود الاجانب في المدينة بعض المنافع المادية ، وافادت مدارسهم ومستشفياتهم كثيراً من النصارى واليهود من سكان المدينة . ولكن الاثر العام لدخول الاجانب كان سيئاً ، وخاصة في الناحية السياسية ، كما سيظهر عندما نبحث تشجيعهم هجرة اليهود تحت حماية أجنبية . واسوأ آثار الاجانب هو ما يصح تسميته « بالازدواج » الذي جاء بعد التنظيمات وتقليد الغرب . وأول مظاهره ادخال غير المسلمين في المجالس الاستشارية وانتقال كثير من صلاحيات القاضي الى المتصرف ومجلسه المختلط ، واخطرها سنّ القوانين المدنية المنقولة عن القوانين الاوربية وتطبيقها بجانب أحكام الشريعة ، ثم قيام المحاكم المدنية بجانب المحاكم الشرعية . كل هذا رفع يد القاضي الشرعي عن كثير من الاحكام وحصر صلاحيته بالمسائل الشرعية الصرفة ، مع انه ظل ينوب عن المتصرف اثناء غيابه أو قبل تعيين خلفه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ثم جاء دور التعليم ، فصدر في سنة ١٢٨٦ هـ (١٨٦٩ م) قانون المعارف ، وليس فيه مايتعلق بإعادة الحياة الى المدارس الاسلامية الأهلية ، لا في القدس ولا في غيرها ، بل نص على انشاء نظام جديد من المكاتب على الطراز الأوروبي مدرّجة هكذا : صبيانية (ابتدائية دُنيا) ، رُشْدية (ابتدائية عُليا) ، إعْدادية (ثانوية دنيا) ، سلطانية (ثانوية عليا) ، عالية (ملكية وعسكرية ودور المعلمين وغيرها) ، دار الفنون (الجامعة) ، ولم يؤسّس من هذه المكاتب في القدس إلاّ الصبيانية والرشدية والإعدادية . وكان الذين يكملون الأخيرة يذهبون الى المكتب السلطاني في بيروت ، وبعدها الى المكاتب العالية في استانبول ، وهذه كلها كانت في العاصمة (٥٦) .

والمشهور ان اللغة التركية لا العربية كانت لغة التعليم في هذه المكاتب الرسمية في القدس وغيرها من المدن العربية لكن الحقيقة خلاف ذلك ، اذ لم يكن بالامكان عملياً تعليم ابناء العرب باللغة التركية في المكاتب الصبيانية ، لعدم وجود عدد كافٍ من المعلمين الذين يعرفون تلك اللغة ، ولهذا السبب ايضاً لم يكن التعليم دائماً باللغة التركية في المكاتب الرشدية . اما المكاتب الإعدادية وما فوقها فكانت اللغة التركية لغة التعليم فيها . وهنا نذكر أحد المكاتب الاعدادية التي فتحت في القدس لعلاقته بالماضي . فقد فتح هذا المكتب في بناء

---

(٥٦) فصلنا ذلك في كتابنا
Arab Education in Mandatory Palestine (London, 1956), p. 128 f.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المدرسة الميمونية التي كانت مهملة حينئذٍ . أسّسها أبو سعيد مَيْمون ابن عبد الله القصري ، خَازِنْدار صلاح الدين ، في سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦م) ، وظلت عامرة حتى القرن الثاني عشر (الثامن عشر) ، ثم أهملت حتى سنة ١٣١٠ هـ (١٨٩٢ م) عندما فتح فيها المكتب الاعدادي العثماني ، ولكن الاسم حُرِّف فصار المأمونية ، وبهذا الاسم قامت مدرسة للبنات في البناء نفسه في عهد الانتداب البريطاني .(٥٧)

وبعد نحو عشرين سنة من التنظيمات الجديدة في القدس وفَتْحِها للأجانب أصبحت مصالحهم فيها كثيرة وكلمتهم مسموعة . وكان ذلك من الاسباب التي جعلت الحكومة العثمانية تُرسل اليها خيرة الرجال لتوليّ وظيفة المتصرف . وبعد كامل باشا الذي ذُكر اعلاه تولاها عدد من المشهورين منهم نظيف باشا ، فهو الذي اهتم بتعبيد الطريق من القدس الى يافا ووضع الحرس عليها لتسهيل الحج والتجارة . وهو الذي أشرف على عمارة المسجد الأقصى ومسجد قبة الصخرة التي بدأت في عهد السلطان محمود واستمرت في عهد السلطان عبد العزيز . يذكر المؤرخون عبد العزيز بالبذخ والتبذير وقلّما يذكرون له هذه الحسنة ، فقد بذل المال بسخاء لعمارة المسجدين التي كادت في بعض الأماكن تكون بناءً جديداً .

وجُعلت القدس متصرفية ممتازة متصلة رأساً باستانبول بعد صدور قانون الولايات في سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧١ م) ، وبعد اربع

---

(٥٧) جاء ذكر وقفية المدرسة الميمونية في السجل رقم ٢٢٨ صفحة ٣٥ (المحكمة الشرعية بالقدس) ، عارف العارف ص ٢٣٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سنين صدر قانون آخر خاص بانشاء مجالس بلدية في مراكز الولايات والمتصرفيات (٥٨) . لكن المجلس البلدي في القدس قبل ذلك ، كان تولّى منذ سنة ١٨٦٣ بعض مسؤوليات القاضي وبعض مسؤوليات المجلس الاستشاري في ادارة شؤون المدينة الداخلية كالنظافة والمياه والاسواق تحت رقابة المتصرف العامة . ويرد ذكر « بلدية » القدس في تقرير عن مشروع مياهها أرسله القنصل البريطاني الى السفارة في استانبول في سنة ١٨٧٤ .

وغيّر معظم ما سبق ذكره من حوادث وانقلابات معالمَ مدينة القدس ، وأضعف صفتها الاسلامية ، وقلّل العمل بنصوص الشريعة فيها ، خذ مثلاً على ذلك السماح ببناء الكنائس والكنُنس الجديدة وأولها كنيسة الانكليز البروتستانت ، وما بُني بعدها من الكنائس في المسكوبية والجرمانية وعلى جبل الزيتون ، بناها الروس وغيرهم من الأجانب ، ومن هيئاتهم الجمعية الكنسية التبشيرية (البريطانية) التي ساعدت البروتستانت من العرب لبناء كنيسة مار بولص في سنة ١٨٧٤ على الطريق الى نابلس .

اما اليهود فكانت لطائفة السفارديم منهم كنيس منذ اواخر عهد المماليك ، وصفها القنصل البريطاني في اواسط القرن التاسع عشر بأنها مكونة من أربع كنُنس تحت سقف واحد . وأما اقلية اليهود أي طائفة الاشكنازيم فقد سُمح لهم ، بمساعي السفير البريطاني ،

(٥٨) خطط الشام لمحمد كرد علي (دمشق ، ١٩٢٧) ج ٥ ص ١٤١ وما يليها . وتقرير القنصل البريطاني المذكور موجود في دارالوثائق العامة بلندن FO /195/1047 (21 February, 1874).

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تعمير كنيس خَرِبة ، ظل اسمها بعد تعميرها « خُرْبه » بالعبرية دليلاً على حالتها السابقة ، وقد حضر القنصل البريطاني صلاة تدشينها في سنة ١٨٥٨ (٥٩) . ولكن ممثل ملة اليهود في المجلس الاستشاري ثم في المجلس البلدي كان من السفارديم لا الاشكنازيم ، فالأولون كانوا عثمانيين اما الآخرون فكانوا اجانب وتحت حماية اجنبية .

ولأسباب مشابهة كان ممثل النصارى عادة من ملة الروم أو الأرمن لا من الكاثوليك (اللاتين) ، فهؤلاء كانوا اقل عدداً وأصلهم واسمهم كان فيه صدى للحروب الصليبية . ولم يتغيّر نظر الحكومة العثمانية لهم بعد سنة ١٨٤٧ عندما أعاد البابا تأسيس البطريركية اللاتينية في القدس ، فهذه كما سبق ذكره انشأها الصليبيون بعد تعطيلهم البطريركية الارثوذكسية . فلما أخرجهم صلاح الدين من القدس خرجت معهم البطريركية اللاتينية وعادت الارثوذكسية الى الظهور . وبمساعي السفير البريطاني اعترفت الحكومة العثمانية بالبروتستانت ملة جديدة رغماً عن قلة عددهم وحداثة تكوين طائفتهم .

ذكر اعلاه ان افراد الطوائف غير الاسلامية من الرعايا العثمانيين اصبحوا متساوين مع المسلمين في الحقوق والواجبات بحسب نصوص المرسومين السلطانيين . ومن هذه الواجبات التي فرضها الخط الهمايوني على غير المسلمين لأول مرة هو الخدمة العسكرية في الجيش العثماني الذي كان دائماً مكوّناً من المسلمين فقط . وكان القصد من ادخال غير

---

(٥٩) James Finn, Stirrins Times (London, 1878), Vol. I , p. 103.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المسلمين فيه ايجاد حيلة لاعفائهم من دفع الجزية التي كرهوها . ولكن الحيلة لم تنجح ، فاشترى المكلفون من غير المسلمين اعفاءهم من الخدمة العسكرية بمبلغ من المال عُرف اصطلاحاً « بالبَدَل » ، أي انهم ظلوا يدفعون الجزية تحت اسم آخر .

وذِكْرُ الطوائف المختلفة في القدس يستدعي العودة لمحاولة بيان عدد كل من المسلمين والنصارى واليهود فيها اثناء الرُبْع الثالث من القرن التاسع عشر ، وتوضيح ذلك ضروري لازدياد المبالغة والمناقضة في تخمين عدد اليهود مؤخراً ، واستغلال الدعاية الصهيونية لزَعْم من زَعَم انهم كانوا اكثرية السكان حينئذٍ وبعدئذٍ . وأول من وضّح سبب المناقضة هو قَسّ انكليزي كان رفيقاً في كلية الملك في جامعة كامبردج وجاء مع الاسقف البروتستانتي الاول الى القدس فألف كتاباً في مجلدين عنها قال فيه : « من المستحيل التوفيق بين الارقام المتضاربة عن سكان القدس ، فالحكومة (العثمانية) لا تُحْصي عددهم احصاءاً رسمياً »[٦٠] .

ولا جدال في صحة هذا التفسير مدة تقرب من ثمانين سنة ، من منتصف القرن التاسع عشر عندما كُتب الى سنة ١٩٢٢ عندما تَمّ اول احصاء في تاريخ فلسطين الحديث اثناء الانتداب البريطاني . اما أسباب المبالغة في عـــدد اليهود فكثيرة ، منها رغبة مبشري البروتستانت الذين كانوا يحاولون تنصير اليهود في القدس اثبات النبوة الخاصة برجوعهم ، ومنها ان المبالغين كانوا من محبي اليهود كالقنصل

---

(٦٠) George Williams, The Holy City (London, 1849), vol. I I , p. 613 — 14 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

البريطاني الثاني الذي قيل عنه انه « نصف يهودي » . ومنها ان المبالغين كانوا بعض اليهود الذين ارادوا ، حتى قبل ظهور الصهيونية تحسين الهجرة الى فلسطين عند يهود اوروبا . فما الذي زعمه هؤلاء ؟

قال القنصل البريطاني « نصف اليهودي » في سنة ١٨٥٨ إن عدد اليهود في القدس كان ٨٫٠٠٠ أو نصف سكانها ، وان عدد المسلمين فيها لم يزد على الربع (اي حوالي ٤٫٠٠٠) ، ولم يقل شيئاً عن النصارى ، لكنه يستنتج من قوله السابق أنهم شكّلوا الربع الباقي . ثم قال هذا القنصل نفسه في سنة ١٨٦٤ (قبيل انتهاء عمله في القدس) ان مجموع سكانها كان ١٥٫٠٠٠ (٨٫٠٠٠ من اليهود ؛ ٤٫٥٠٠ من المسلمين والباقي من النصارى) [٦١] . معنى هذا الكلام ان مجموع سكان المدينة نقص الفاً في ست سنوات ، وان عدد اليهود ظلّ دون زيارة اثناء تلك السنوات ، وان عدد المسلمين زاد ٥٠٠ نسمة فقط اثناء تلك السنوات ، وان عدد النصارى نقص ٢٫٥٠٠ نسمة . فمن الواضح انه لا يمكن قبول أرقام يلغي بعضها بعضاً على هذه الصورة !

ثم جاء قنصل بريطاني آخر اعتمد مثل سلفه على الحدس والتخمين ، مع انه لم يكن مثل سلفه أعمى البصيرة في محبة اليهود . قال في سنة ١٨٦٥ ان عدد سكان القدس بلغ ١٨٫٠٠٠ فيهم ٨٫٠٠٠ — ٩٫٠٠٠ من اليهود ، ٥٫٠٠٠ من المسلمين ؛ والباقي من

---

(٦١) دار الوثائق العامة في لندن :
FO/78/1383 : From Consul Finn to Clarendon (1st January, 1858), FO/195/808 : Consul Finn's Report (May, 1864). (٦١)
vol. I I , p. 462 — 63 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

النصارى . ثم قال في سنة ١٨٧٤ ان عدد اليهود الأجانب كان حوالي ٣٠٠٠ نسمة .(٦٢) وكلام هذا القنصل ايضاً لا يمكن قبوله لأنه لا ينطبق على كلام من سبقه ولا على ما جاء في مصدر اشتهر بالدقة ، اذ في سنة ١٨٧٦ (اي بعد سنتين من آخر تقرير قنصلي) أصدر بَدِكَرْ اول دليل للمسافرين في فلسطين وسورية ، فقدّر عدد سكان القدس بنحو ٢٤٠٠٠ (منهم ١٢٠٠٠ من المسلمين و ٧٠٠٠ من النصارى و ٤٠٠٠ من اليهود .(٦٣) فاذا قُوبل هذا مع ارقام القنصل البريطاني عن سنة ١٧٧٤ تبين ان مجموع سكان المدينة زاد في سنتين من ١٨٠٠٠ الى ٢٤٠٠٠ ، وزاد عدد المسلمين في هاتين السنتين من خمسة آلاف الى ثلاثة عشر ألفاً ، وزاد عدد النصارى من اربعة آلاف الى ستة آلاف ، وانخسف عدد اليهود من تسعة آلاف الى اربعة آلاف . هذه الأرقام اقرب الى الحقيقة ولكنها مثل غيرها قائمة على التخمين والتقدير ، لا على احصاء رسمي دقيق ، وفهمها يحتاج الى النظر في المساحة التي عرفت بحارة اليهود .

من المحقق ان جميع اليهود أقاموا حتى حرب القرم في المدينة داخل الاسوار في تلك الحارة . وكلمة الحارة معناها في القدس الحي ، وكان معناها سابقاً الشارع ، وهذا كان معناه الخط . ووُجد اليهود

---

(٦٢) دار الوثائق العامة في لندن :

FO/195/808 : Consul Moore's Report (March, 1865) .

FO/195/1047 : Consul's Moores Report (21 February, 1874) .

(٦٣) Karl Baedeker, Handbook for Travellers (Palestine and Syria), 1876 edition p. 161 — 62 .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اولاً في خط او شارع واحد على المنحدر الواقع بين حارة الأرمن من الغرب وحارة الشرف الاسلامية من الشرق . وهذا الحيّز الضيق لم يتسع بعد نهاية القرن الخامس عشر لايواء اللاجئين من اسبانيا والمهاجرين من بولونيا ، فاستؤجرت بيوت المسلمين في الشوارع المجاورة لهذا الغرض . وكان كثير من هذه البيوت على املاك الأوقاف الخيرية أو الذرية وبعضها على الاملاك الخاصة ، وهذا مثل على ذلك يعود الى القرن السابع عشر مأخوذ من سجلات المحكمة الشرعية لسنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٨ م) التي تنص على ان احد علماء القدس وهو السيد عبد القادر الوفائي قد أجّر « لليهودية المدعوة عزيزة بنت اسحق جميع الدار العلوية والقاعة السفلية القائمة البناء بمحلة الشرف بالقدس الشريف ، سكناً وإسكاناً لمدة خمس سنوات بأجرة قدرها ستون غرشاً اجرة كل سنة اثنا عشر غرشاً »(٦٤)

كان شراء الاملاك غير المنقولة مباحاً لطائفة السفارديم لأنهم كانوا من الرعايا العثمانيين ، أما طائفة الاشكنازيم فلم يسمح لهم ذلك الى أن صدر القانون العثماني الخاص بتملك الأجانب في سنة ١٨٦٧ . وهذا يفسر ما جاء في تقرير من القنصل البريطاني ان طائفة السفارديم أجبرت القادمين من طائفة الاشكنازيم على دفع ضريبة حتى يسمح لهم بالاقامة في الحي اليهودي (٦٥) ، فضيقه سبب كثافة شديدة في سكان المنازل الموجودة وضرورة استئجار ما أمكن استئجاره

---

(٦٤) سجل رقم ١٠٢ صفحة ٧٣ .

(٦٥) ذكر ذلك القنصل البريطاني « فن » في تقريره FO/78/2068 (27 June, 1849) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

من املاك الوقف الاسلامي أو املاك المسلمين الخاصة . والغريب ان القنصل الذي ذكر ما سبق لم يُدْرك استحالة وضع اكثرية السكان (على زعمه) في أصغر مساحة من المدينة !

على كل حال كان اليهود الاشكنازيم رعايا دول اجنبية ، دخلوا المدينة واقاموا فيها اقامة موقته ولم يدفعوا شيئاً من الضرائب ، ولكن لم تكن لهم حقوق اليهود العثمانيين في انتخاب رئيس الحاخامين أو ممثل الملة في المجلس الاستشاري او المجلس البلدي . فالذي يستنتج مما سبق من البحث انه قُبَيْل الانتخابات البلدية التي سبقت الانتخابات النيابية في سنة ١٨٧٨ كانت اكثرية سكان القدس من المسلمين ، مع أقلية من النصارى (نحو نصف المسلمين ، على تقدير بَدِكَرْ) وأقلية أَقَلّ منها من اليهود (اقل من ثلث المسلمين ونحو نصف النصارى ، بحسب تقدير بَدِكَرْ أيضاً) . أما عدد المسلمين او النصارى او اليهود بالضبط فلا يُعرف ولا يمكن قبول أي تقدير له للأسباب السابقة الذكر .

لكن الانتخابات دلّت على صحة النِّسَب السابقة على وجه الاجمال . فكان رئيس البلدية مسلماً ، ومَثّل النصارى في المجلس البلدي عضو واحد ، كما مَثّل اليهود (العثمانيين) فيه عضو آخر . وانتخب رئيس البلدية عُضْواً في المجلس النيابي (المبعوثان بالتركية) في استانبول . وهذا ما كانت عليه الحالة عندما بدأ التوازن بين سكان القدس يَخْتَلُّ بهجرة اليهود من روسيا اليها بعد سنة ١٨٨٢ .

للبحث صلة

عبد اللطيف الطيباوي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net